منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

حسب الله يحيى

الكتابة الخشنة

والكتابة الناعمة

مؤشـــرات في الاســـلام والاختـــلاف والوعـــي



حسب الله يحيى

الكتابة الخشنة والكتابة الناعمة - مؤشرات في الاسلام والاختلاف والوعي

2018

Publications of General Union of Iraqi Writers

الكتابة الخشنة والكتابة الناعمة

حسب الله يحيى

إقرأ معنا أبرَ الكتب..

حين أسس الجواهري الكبير ورهطه المجيد يوم 7 أيار 1959 اتحاد الأدباء العراقيين، كانوا من الحكمة بمكان حين أطلقوا اسم (الاتحاد) على المنظمة الوليدة وليس (النقابة)، وهذا ما حمّل المتصدين للعمل القيادي في هذا الاتحاد العتيد أن لا يقتصر العمل فيه مهنيا بل أن تكون الأولوية للعمل الثقافي ومن بعده يكون العمل المهني في ثاني سلّم أولوياته..

وعلى هذا الهدي، أطلق الاتحاد مشروعه (منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق) ليأخذ هذا الكتاب الذي بين يديكم رقما منيرا في سلسلته المتلألئة.. وأعلن الاتحاد مع تباشير السنة 2017 عن بدء استقباله مخطوطات الكتب الأدبية لأعضائه لغرض طباعتها.

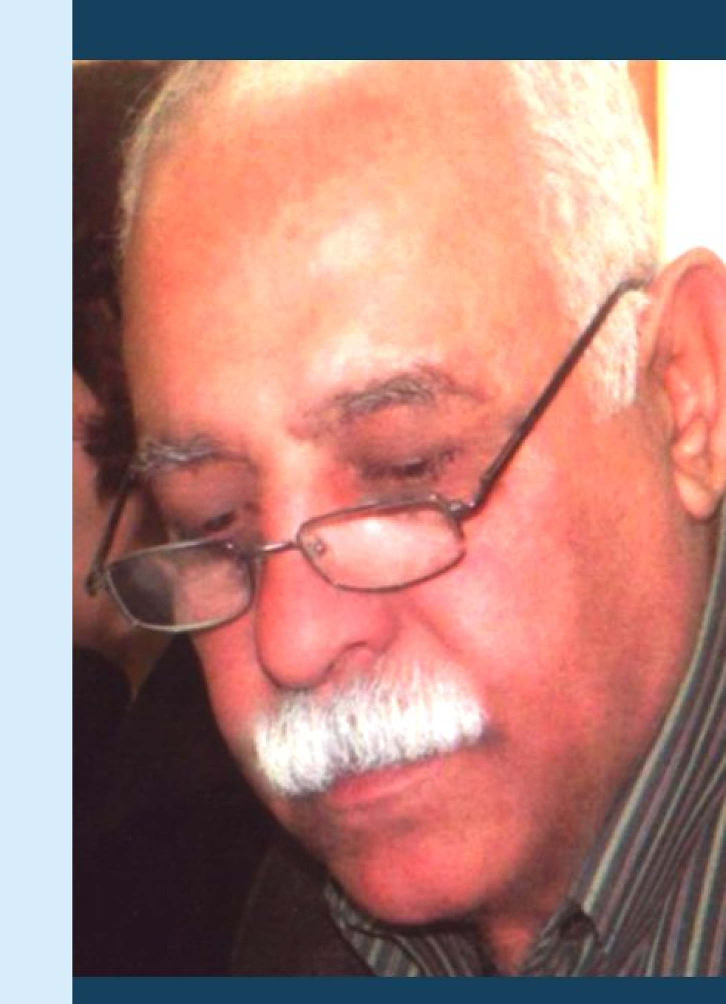
وإيثارا منها فقد قررت قيادة الاتحاد استثناء أعضائها في السنة الأولى من النشر في هذه السلسلة الفتية عمرا والكبيرة حقا فيما تضمّ من ابداعات مزكاة ومن أسماء لها رنّة الذهب الصاغ..

وفي حلم صغير أنيق لها، تحاول هذه السلسلة الثرّة الثريّة أن تصحح صياغة شعار عربيّ عتيق ليكون:

العراق يكتب، العراق يطبع، العالم يقرأ...



تصميم الغلاف : نقاء حسب الله يحيى



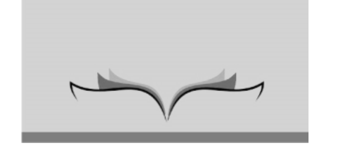
HASABALLAHYAHYA

- له (40) كتاباً في القصة والرواية والمسرح والتشكيل والنقد والمعرفة
- عمل رئيساً لتحرير عدد من الصحف والمجلات العراقية
- عمل خبيرا في وزارة الثقافة ومستشاراً في لجان ثقافية وابداعية ولجان تحكيم عراقية وعربية ودولية
- حالياً متقاعد ومتفرغ للكتابة

الكتابة الخشنة والكتابة الناعمة

مؤشرات في الإسلام والاختلاف والوعي

حسب الله يحيى



منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

الكتابة الخشنة و الكتابة الناعمة

مؤشرات في الإسلام والاختلاف والوعي

حسب اللّه يحيى



إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

الطبعة الاولى 2018



الكتابة الخشنة والكتابة الناعمة

حسب اللّه يحيى

رقم الايداع:

الطبعة الاولى 2018
اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق – بغداد

First Edition 2018
Published by the Union of Iraqi Writers – Baghdad - Iraq

طباعة : دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع
Printing : Dar Al-Rowad for Publishing and Distribution

التداوي بالكتابة .. !

نعم .. الكتابة دواء وعلاج.. ومن ثم شفاء .

الكتابة على وفق ما ورد، ليست مرضاً يراد الخلاص منه وإنقاذ انفسنا من اوجاعه..

لا .. الكتابة، حاجة ضرورية واساسية ملحة، فم يريد ان يبوح، ورئة تريد ان تتنفس، وقلب لابد ان يحس صاحبه بنبراته، وعقل يراد منه إلا يغادر الذاكرة .

الكتابة.. عافية القلب والعقل والروح، شمس تضيء غابات من الكلمات التي تحتبس في دواخلنا، وتبحث عن مساحة للبوح .

الكتابة .. تعني ان ضوء العقل لم ينطفئ، وصدى المخبأ لم يعد قادراً على البقاء في العتمة، وان به حاجة ملحة للخروج من قبو عميق في دواخلنا .

من هنا يكون جواب الروائية العالمية / ايزابيل الليندي على من دعاها للكف عن الكتابات الحزينة التي ملأت صفحات رواياتها بعد فقدان ابنتها (باولا) ، حيث اجابت:(اني اتداوى) .

في مثل هذه المواقف الصعبة نحتاج الى الكتابة، مواقف يتطلب منا الخروج من مآزقها وضغوطها وثقلها علينا ..

وهذا لا يعني ابداً ان نوقع القارئ في شرك همومنا وشباك متاعبنا من دون ان يكون طرفاً فيها، أوله شاغل في امرها .

هذا حق يفترض بنا ادراكه، حتى لا تتحول الكتابة الى عالم من المآسي والسوداويات التي نحيط بها الآخرين ونجعلها في عالم من القنوط والاحباط .

غير اننا لو عدنا الى كل الاعمال الابداعية الكبيرة والكتب الفذة المضيئة، فأننا نجدها مثقلة بالهموم ومتاعب الحياة، كما نقرأ الكتب التي تختزن الكثير من المعارف والأفكار العميقة وهذا يعني ان الكتابة العظيمة كتابة تصدر عن عقول مثقلة بالقضوايا.. وعناقيدها مثقلة بالمتاعب دائماً بالتالي سرعان ما تتحول من (عناقيد الغضب) على حد قول شتاينبك .. الى عناقيد وعي ونباهة وحرص وضوء ينير الدروب والمتعة ..

ان الكتابة الاثيرة .. كتابة مشغولة بالهم البشري، وهمومنا ومشاغلنا تلتقي عند افراد وجماعات وشعوب كثيرة.. وهنا يكمن ارتياح القارئ عندما يشاركه الكاتب همومه وينقلها الى صفحات

الكتب وهذا هو الامر الذي يجعل من الكتابة الحية.. كتابة إنسانية.. أثيرة، تجد صداها وتأثيرها في ذاكرة واحاسيس قراء من شتى المشارب والالوان.. وهذا يعني بالتالي ان البشر تجمعهم المآسي والاحزان والجهود الفعلية والعضلية المضيئة اكثر مما تجمعهم الأفراح العابرة والمسرات التي تمر كما السحابة .. ذلك ان الذاكرة تحتفظ دائماً بما اتعبها وارهقها وشغل عليها عوالمها، اكثر بكثير من تلك السعادات التي تسعد اللحظات التي وجدت فيها.. لتتوارى في النسيان.

ما بعد الكتابة ...

الآن .. وأنا أغادر السبعين، ولي في المكتبة (39) كتاباً ومئات القصص والمقالات والدراسات التي نشرت في صحف ومجلات عراقية وعربية مرموقة، حتى ليمكنني القول أنه ما من مجلة ناطقة باللغة العربية منذ العام 1964 والى الآن لم أكتب فيها ..

هذه المقدمة .. ليست مدخلاً سليماً لتجربة طويلة وعميقة من القراءة والكتابة الجادة والمثمرة .. فقد يعدها البعض تباهياً وكماً أريد استعراضه على الآخرين، وهذا ما لا أقصده ولا أعنيه، وإنما أريد به عرض منجز لا أقيسه بالطول والعرض والكم .. لكنه العمر كله والجهد بحمله المضيء والصحة بوشمها الذي صدعه صداع نصفي أخذ العافية كلها وأبقى على الانسان الذي أمامكم .. هيكلاً لاتستوي فيه أجنحة فرح ولا طمأنينة ولا استقرار .

ما أريده .. ليس خلاصة حساب مع الماضي ولا جرداً بما كان وما هو كائن وما قد يكون .. لكنه نتيجة لا أحسبها تروق لكم .. ولكنها تروق للحقيقة اولاً ولحكمة العقل أولاً كذلك ..

الحقيقة والعقل .. صنوان، ولا تستوي الحقيقة بكل ما تمتلكه من نقاء، مع عقل معطل كسول يكتفي ويقدس ما كان كما لو أنه استثناء نادر عن الآخرين .

الأمر ليس كذلك .. فما هو شخصي لا ضرورة لأشغال أذهانكم التي أحسبها يقظة وهي تصغي اليّ ، وانما اريد من هذه الوقفة التي بقيت أؤجلها حتى اصطفيت من ضغوطها الجزء الضئيل عن نفسي وقلبي وروحي وعقلي .. هذه الوقفات أحسبها جديرة بالانتباه .

فما كان التعويض عن شهادات عليا كنت أطمح للحصول عليه سهلاً؛ وإنما كان يصطدم بلقمة العيش العصية على فتى مثلي .. لذلك لجأ الماثل أمامكم الى الجمع بين دراسة ذاتية للمناهج الدراسية الجامعية بكل مراحلها والعمل المضني في صناعات سبع تثمر حتى رغيفاً قدّ من نخالة .

وما كان حتى عرق الجبين يرتاح على جبهتي ، ذلك ان الشر الذي في الشرطة اصطادني كما لو أنني كائن غريب يحمل بأصابعه العمالية الخشنة كتاباً ويضع في قميصه المعتق قلماً يتباهى في جيب خالٍ تلعب فيه الريح ..

كثير على ذاك الفتى العمالي ان يحمل كتاباً وقلماً .. إذن ذاك الفتى يعي ، ومن يعي يتعب .. ومن يتعب يفكر بالتغيير لذلك كنت استبق شرطي الأمن في تمردي على واقع مر، فيما دبر لي الأشرار المكيدة السياسة التي سيستني فيما بعد حتى أختار الناس.. ضوء عقلي وقلبي .

وقررت امتحان اصراري على النجاح وأنا في السجن .. كان السجان يمسك بيساري المصفد بالسلاسل ، وفي يميني قلم رصاص وقد رصّ فيه امتلائي ثقة .. وأفلحت .

لكن الدرس القانوني ومعرفة حقوق الانسان ظل هاجسي حتى اللحظة .. كنت امني نفسي بأجابة فرانسواكيناي وهو يجيب على سؤال يقول :

- ماذا تفعل لو كنت ملكاً ؟ قال : لا افعل شيئاً . فسألوه : من تحكم ؟ قال : القوانين .

وفعلاً صار التمني حقيقة وكان أن قبلت في كلية الحقوق .. لكن حقوقي في الحياة اصطدمت بالفاقة ، بحيث كان بين الدراسة الاكاديمية والفقر مسافة لا تمحى .. لذلك استبدلت شغفي بانتزاعها من سراقها المغتالين لوجودها ، فعمدت الى (القصة) أتوسلها علّها تسعف رجائي في إيصال رموزي الى من يفكها من أسرها الفني .. لتكون رسالة بوح صادق .

ولأن فن (المسرح) كان للناس به رغبة ؛ رأيت أن أوظف هذه الرغبة لإصلاح المعوج في حياتنا ونقد ماضي وحاضر زائف ، فلجأت الى عروضه أفضح أسرارها وأكشف عن زيفها تارة وجمراتها تارة أخرى .

كنت أتخفى وراء القصة والنقد المسرحي ، كما لو أنني أبحث عن كائن غريب لسته بأي حال ، فإذا وجدته ألححت علية حتى يكون بقدر المسؤولية .

وكان ما كان .. ردود أفعال ، لا تحاربني بشرف الحوار ، وإنما اتجهت الى ان تستل سيوفاً صدئة تحاربني بالقسوة تارة والسجون والمحاكم تارة أخرى ، وبالطرد خارج اسوار المؤسسة التعليمية والثقافية ..

لا أعرض امامكم شريطاً سينمائياً موثقاً .. فما بكم حاجة الى مزيد من الأنين ، وليست بي رغبة الى استعراض لايعنيكم .

خياركم أن تغادروا صفحة هذه الورقة ، او تتركوني بين جدران هذه القاعة .. ولو كنت بديلاً لأي واحد منكم .. لفعلت ..

فما شأن رؤوسكم التي تزهو بالفضة .. حتى تتصدع بهذا العرض على ايجازه ؟

أستميحكم عذراً وأتوسلكم السؤال عما كان من هذا العجز التدميري والغابات الشاسعة من الكلمات .. التي أودعت فيها ليال طوال ، وفجر ألزمه الاستيقاظ على مدى سبعين عاماً .

كنت أستجيب لصحوة روحي وضوء بصري وبصيرتي التي راحت تنطفئ شيئاً فشيئاً .. وحتى لايدركها العمى ، عليّ أن أوجز في ايضاحي هذا .. علّه ينقذ من وهم ، ويفلح في سبيل .. وما سبيلي الا الرشد ، وما أنا مرشد للغافلين الذين يصحون بعد ان تكون الدنيا قد سهت وعجزت ونخرها الدود ..ولكنني أنبه ، ولا املك من دعوة إلا الى صحوة الانتباه .

أقول ..

كان الكتاب ضوء كلي ووارث للحكماء والانبياء .. فيما كنت أشيد حروفي ، استنطقها حتى تكسر السطور المستقيمة التي تعد سلفاً.

ما أنا بكاتب سطور يرسمون قاعدتها لي ، وإنما أنا انسان لايستمتع الا بالفهم ، ولا يغنيني من متاع الدنيا إلا كتاب يضيف ويسحر ويوقظ .

وفي القراءة والكتابة .. كنت أبحث عن فهم ذاتي وذوات الآخرين ، حتى أتبين موقعي بينهم ومدى تأثيري فيهم وتأثيرهم فيّ ..

لكن حصادي كان تفهمي لنفسي وللآخرين من خلال التجارب الحياتية اليومية التي كنت أعيشها واتلمس وجودي في سلبها الكثيرة .

بدأت أعي ان القراءة مادامت غير بريئة كما يقول التوسير؛ فأن الكتابة والتجارب الحياتية ليست بريئة كذلك ..

وكما ان اختلافك عن سواك لايعني عزوفك وامتيازك عن سواك؛ وإنما تأشير لمعطيات وجودك الأسمى .. ذاك الوجود الذي يملك الدليل

والبرهان والحجة .. وها انت قد تبنيت الامور على وفق امتحان الازمنة الصعبة التي عشتها ، وقد بدأت تبوح بها بقدر من الحرية ، الا ان هذه المساحة المتاحة من حرية التعبير بدأت تضيق وتنكمش حتى وجدت نفسها في سجن آخر إسمه (السياسة التدميرية) التي تحيط بي او بك من كل جانب .

ففي الوقت الذي أردت اقتفاء طريق تشيخوف وهو يدعو الناس : " أنظروا الى انفسكم ، انظروا كيف تحيون حياة سيئة مملة " فوجئت بعرضين : اما الخلود الى السكينة مقابل الوظيفة والمال، او الوقوف في الصف المعارض واحتمال ما لا يحتمل .. وكنت بينهما أعمل بطريقة غاية في الغرابة .. بحيث أرقص تحت زخات المطر من دون أن ابتل .

عملت على وفق الرموز والتأويل الذي بوسعه ايصال المفاهيم التي اريد ايصالها بلا خسائر ،ومع ذلك ظلت الخسائر تتقصدني.. ولست نادماً على كل مافعلت وقرأت وكتبت وعشت .

لكنني الآن أجدني صائتاً أبوح برأيي ازاء كل قضية اتلمس فيها صواب رأيي ، على مدى عقد كامل بعد التغيير وبقيت أكتب عموداً صحفياً يومياً يدين كل الممارسات السلبية في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ولم اتلق إجابة أو تعليقاً أو رداً عن كل الاتهامات والادانات التي اعلنتها غاضباً .. ولم يعد امامي الا السكوت امام جدار أصم لايصغي لي ولا لسواي..

إذن ماجدوى الكتابة بعد هذا العمر الذي شاخت دقائقه وساعاته وايامه .. وسنواته ، واستوى ليله ونهاره، وشتاؤه وصيفه ، وربيعه وخريفه ..

ماضيه بكل مراراته ، وحاضره بكل مآسيه ، ومستقبله الذي لا ومضة واحدة تلوح في افقه ؟

هذه صفحة من حياة لم تعد تحيا ، وكلام ملّ بوحه وهو غير قادر على تأهيل صاحبه ولا قرائه من تدبير طعام يومه ، ولا كساء نفسه ولا تنظيم خيط في زر قميصه .. !

فهل كان كل ما قرأته وكتبته وعشته .. كان مجرد وعاء معرفي لايشبع جوعاً ولايروي ظمأ ولا يستريح لبال ولا يهدأ لنوم ولايهنأ لضوء نهار قلق !

وليس بوسعه اختراع قرصاً يسكن هذا الضجيج في رأس يضرب به الصداع في كل لحظة ..

ماهو حصاد ذاك الركام المعرفي سوى المزيد من القلق والظلام الذي لا يضفي الى نور نعرف على وفقه قانوناً ينصف حقاً ويدين فساداً او جريمة وزيفاً ؟

ما جدوى ماكناه — او كنته أنا على وجه التحديد — وليس بمقدوري استثمار مدفأتي ومروحتي من نبع نفطي هائل ، ولا تصنع رطباً احلى من الحلاوة من نخلة تموت ظمأ ؟

ما معنى أن أبق اتوسل الانسان في كل بلدان العالم ،اتوسلهم رغيفي ودوائي وملبسي وحتى صورة نفسي في الفضائيات ؟

نحن اناس كسالى ، لا نملك سوى اصوتاً صامتة إتهمنا بها العدائيون منذ القدم وصدقنا متمرداً منا اسمه : عبد الله القصيمي.

لكننا بقينا من بين شعوب الأرض كلها ننظر الى المستقبل بعيون وأصوات الماضي الآفل ومن هنا ظلت عقولنا عطشى ومسارنا ينقلنا من صحراء لمنفى ..

من هنا أجدني اتفق مع أبي حيان التوحيدي في احراق كتبه .. فهو لايريد تركها لقوم لايقدرون قيمتها ..

او اتلفها زاهداً كما .. عمرو بن العلاء .

او ألقيها في النهر كما .. داود الكائي او أحملها الى غار وأسد ابوابه كما .. يوسف أسباط .. او رميها لنيران فرن كما .. ابو سفيان الثوري او أغسلها كما .. ابن ابي الجوزي .

لن تكون الكتب جنتي .. كما اراد ماركيز .

ولن تكون بصيرتي كما اراد بورخس..

وإنما سأرمي بالكتب والكتابة الى نار تحرقها .. وعندئذ تضيء .. كما طائر الشوك يلقي بحنجرته الى اكثر الغصون بروزاً حتى يغني اغنية الحياة الأخيرة ..

تفكير ام تكفير ؟

سهل جدا أن نتهم الآخر.. بما نشاء من التهم .

التهم جاهزة، لكن الادلة والبراهين والحجج غائبة عنها.. وهو الامر الذي يجعلها باطلة وكيدية ومطلوب معاقبة ومحاسبة وادانة من أثارها ..

كل قوانين العالم تقول بهذا .. وتحتكم اليه .

الا ان عدداً من الجناة والعصابيين والتدميريين؛ سهلوا على انفسهم إدانة الآخر والقصاص منه، واقصاؤه من الحياة بأسم (التكفير) حتى باتت هذه المفردة السيئة الصيت ترد على لسان كل من نختلف معهم، وتاريخياً كما يقول الشاعر ادونيس (أدت ثقافة التكفير الى ثقافة الامتناع عن التفكير) وبات الاجتهاد والتأويل والدرس والتحليل .. غائباً عن حياتنا ..

في حين يفترض بنا ان نعرف، وما نعرفه لابد ان يكون لنا موقف منه، ورأي فيه.. وعقل يصطفي عنده ويقتنع به ومن ثم يذود عنه ويعمد الى نشره بين الناس .

الا ان قناعات الكثيرين، تعتمد على العواطف والعلاقات والمصالح، ومثل هذه القناعات سريعة الزوال، ذائبة في أول قطرة ماء تلتقيها.. ذلك ان (تكفير) الآخر، منظور أحادي، ووعي مستلب، وارادة مجردة، لايراد منها الا الخلاص من الآخر، لأسباب تتعلق بالمال والجاه والموقع، مع ان هذه الامور تأتي بالصدق والنقاء والمحبة، لا بإلغاء الآخر، والحاق الضر به، والوصول به الى العدم .

ان الحياة لاتقوم على ان نخون الآخر ونדينه من حيث يدري ولا يدري، ومن حيث ندري ونعلم ونصّر ونلّح ونعمد الى الحط من الآخر بسبل شتى وصولاً الى اهداف لا تلتقي عندها أرواح نظيفة ولا عقول تحتكم الى الحق والعدل والانصاف ..

ان من يبدأ من الحقد، ينتهي الى كراهية نفسه وأهله، ومن ثم لايحصد من حياته في نهاية الامر الا طبع الندم والهزيمة والاحقاد التي تودي باصحابها الى التهلكة.

وما دمنا كائنات اجتماعية.. لكل منا مشاربها وطباعها وقناعاتها وافكارها ورؤاها، فأننا ملزمون بالتفاعل معها، من دون ان نملي عليها

شروطنا وقناعاتنا الشخصية.. فالمجتمعات لاتحيا ولا تتقدم ولا تقوم لها قائمة ان هي ظلت، تجد في كل من يختلف معها عدواً،وفي كل من لا يصغي اليها به حاجة الى قصاص بسيف باتر.

هذا الطبع في النظر الى الآخرين، نظر اعمى، ومفهوم اجوف، وعقل معطل عن التفكير منصرف الى شأنه ولا شأن في العالمين سواه ..

إنه كفر بالآخرين، كفر وبلاء ووحشية يحملها البعض ممن يدعون لأنفسهم الكمال كله، ولسواهم الاخطاء كلها والسلبيات كلها والآثام بمجموعها .

هذا النمط من الذين بات معلوماً أمرهم في محيط حياتنا، يحتاج الى مراجعات صادقة وصريحة وحميمية وموضوعية مع النفس.. وبعكسه يتطلب الأمر.. الكشف عن اماكن السوء حتى تتأصل لئلا تشيع العدوى الفادحة في النفوس الطيبة، ولئلا تتحول البلاد الى واقع مرير تسقط فيه مظاهر الامن والسلام والاستقرار، وتحولها الى مرتع خصب لذوي الحقد والكراهية والتكفير وسوء التدبير .

الحياة حديقة ايها السادة، وكل حديقة تزهو بالتنوع وهذا هو مصدر الجمال فيها.. ومثلما يشكل (الآخر ضرورة في وجودي) كما يقول كارل ياسبرز؛ يشكل الجميع حضوراً في حياتي، مثلما أشكل

حضوراً طيباً في حياتهم.. ومن الطيب يصبح للحياة زهوها وبهاؤها وتطلعاتها الدائمة للشمس .



ثقافة الاختلاف

هناك دعوة دائمة تتعلق بالاختلاف والرأي الاخر والتعددية ..

دعوة طيبة ومقبولة ومتفق عليها من قبل الجميع .. لكن الجميع مقبلون على توجه معاكس تماماً لدعواتهم .. فهم لايقبلون الاخر، ولايطيقونه .. لاشخصاً ولارأياً ، وقد يحرضون على ابعاده وحتى تصفيته والخلاص منه.

واذا ماراجعنا كل ماضي البشرية .. كلها ومنذ بدء الخليقة حتى الان .. وفي كل زمان ومكان ، وجدنا ان الاختلاف قائم بين البشر، بل هو صفة مهمة من صفات الانسان مقارنة بسواه من الكائنات وهذا يعني ان الواحد منا ليس نسخة اخرى من سواه ..

صحيح ان العلم بات يعتمد استنساخ الحيوانات ، وقد يستنسخ الانسان غداً ، الا ان هذه الدقة العلمية على مدى تطورها .. لم تتمكن من استنساخ فكر وميول وطبيعة الانسان على وفق ماتريد.

نعم قد تتمكن من تحديد حجمه ولونه ووزنه .. الا انها ستظل عاجزة عن اختراع انسان شمولي يعمل كما دقات الساعة ، كما اية آلة ..

الانسان كائن مفكر ، عقلاني وعاطفي وحسي وروحي .. يؤثر ويتأثر ، ما يقنع به اليوم ، قد يقنع بسواه غداً ، وهذا لايعني انه مخلوق انتهازي ـ على الرغم من وجود هذا الطراز ـ الا ان غلبة القناعة والبرهان والحجة .. هي مؤشرات اساسية في تغييره .

لذلك يتطلب الامر منا جميعاً ، اقناع الاخر بما نحمله من حقائق ودلالات ، بدلاً من ممارسة الكراهية ضده ، والعمل على ملاحقته بشتى الاساليب اللاانسانية .. فمثل هذه الطرق لا يمكن لها ان تنمو وتحيا ابداً .. ولنا في كل طغاة العالم مثلاً ، ولنا في كل النباتات الطفيلية مثلاً ، ولنا في كل قوى التمرد مثلاً ، ولنا في كل حيوانات الغابة مثلاً ..

امثلة كثيرة في حياتنا لايمكن لنا حصرها ، ولا يمكن لنا حجبها عن العيون ، ولايمكن لنا تغييب وجودها الى الابد .

الاختلاف سمة الحياة ، والطريقة المثلى للبقاء بوصفنا كائنات بشرية مدركة .. ويقوم وجودها على الوعي والحوار والمنطق .

لذلك يحسن بالواحد منا القبول بوجود الاخر ، حتى يصبح بالضرورة قبول الاخر بوجودنا ..

وحين نوجد معاً ، يصبح بمقدورنا ان نفكر برؤى متعددة ، بعقول لها تجاربها وخبراتها وامكاناتها في التعامل بحكمتها وادراكها مع الاشياء ، وبالتالي الوصول الى افضل الحلول واسلم الطرق .



الاختلاف .. ثقافة معمقة

أن تختلف مع الآخر، يعني ان يكون لك رأي قائم على وعي وبرهان وحجة

اما أن تختلف لمجرد الاختلاف مع الآخر، فأن الأمر سينتقل إما الى الجهل أو البغضاء والخصومة.

مانريده ونسعى إليه قائم على الاختلاف الثقافي والفكري المنتج، والمعبر عن موقف يعتد صاحبه بصحته، ويسعى الى نشره على وفق ماهو عليه من حجة صحيحة ورؤية سديدة.

وبهدف تحقيق حضور لمعنى الاختلاف، ظهرت في الجزائر دار للنشر اطلقت على نفسها اسم (منشورات الاختلاف).

ولسنا هنا بصدد تقديم اعلان مجاني لهذه الدار المختلفة عن سواها من دور النشر في عرض الكتب التي أصدرتها، وإنما الوقوف عند الأسم الذي إختارته هذه الدار، وما جدوى اختلافها عن غيرها من

دور النشر.. وصولاً الى الموقع الذي تشغله دور النشر العراقية(الرسمية والخاصة معاً) وكيف إنتقلت مؤلفات وترجمات العراقيين الى (بضاعة) يتم تصديرها الى الخارج، لتعود الينا بطباعة أنيقة، ولكن بمحتوى متواضع وجهود محدودة.

منشورات الاختلاف الجزائرية هذه، إختلفت فعلاً.. وبين أيدينا ما يؤكد هذا الاختلاف فعلاً عبر كتب ثلاثة هي:

(حدود التأويل/ قراءة في مشروع امبرتو ايكو النقدي) لوحيد بوعزيز، و (الفهم والنص/ دراسة في المنهج التأويلي عند شليرما فر وديلتاي) لبومدين بوزيد، و(إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد) للدكتور يوسف وغليسي.

صحيح أن مثل هذه العنوانات متوفر في المكتبات، لكن معظم المتوفر مترجم من لغات عدة، وماهو موجود من مؤلفات مماثلة يقع تحت تأثير الترجمة عليه بشكل واضح.. فيما نجد الاختلاف في هذه الكتب الثلاثة.

إنها لمؤلفين جزائريين ومشبعين بالثقافة الفرنسية على وجه التحديد، مما يعني أن الرؤى مختلفة والنتائج متعددة والاقلام متنوعة..

وهذا الاختلاف والتنوع لايقوم على كتابات عابرة او دراسات عجل اصحابها بأصدارها ضمن هذه المنشورات، وإنما نجد في كل كتاب من هذه الكتب المعمقة.. مالانراه في سواها.. ذلك أنها مختلفة إختلافاً كلياً عن سابقاتها من الكتب المؤلفة والمترجمة التي قرأناها من

خلال اصدارات عربية عديدة، لكننا هنا نجد لغة عربية جديدة وقاموسها غير مستهلك وبحثاً معمقاً غير مألوف.

من هنا نبين ان الاختلاف ظاهرة صحية جديرة بالاحترام إذا ماتم بناؤها بعمق ودراية.. أما هنا في العراق، فمازلنا نعد الاختلاف خلافاً، والنقد تجريحاً، والنظرة الاخرى.. عداء، وان الآخر ضدنا مادام ليس معنا.. ومثل هذا الوعي السالب من اخطر مانشهده في حياتنا اليوم!

3

في الخلاف والاختلاف

الخلاف.. صفة خشنة في التعامل الانساني، ومن يلجأ الى الخلاف، يؤكد عجزه عن اقناع الآخر بالمنطق والحجة .

اما الاختلاف، فهو من طبع الانسان الواعي والمدرك لأنسانيته وامكانية التعايش والتفاعل مع الآخر الذي يختلف عنه في الرأي ..

وهي مجتمعة صفات نبيلة اكد عليها الامام علي عليه السلام قال :

((من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الصواب)) و ((ما اعجب برأيه إلا جاهل)) و ((لا رأي لمن انفرد برأيه)) و ((من إستبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركهم عقولهم)) و((رأي الرجل على قدر تجربته)).

ويمكننا إيراد العديد من الأقوال التي أوردها العقلاء والحكماء الذين لابد لنا من الأعتداد باحكامهم وتجاربهم بوصفها دلالة على

كل ماهو خير ونبيل.. يعزز وعي الناس ويشد بعضهم الى البعض الآخر ..

إلا ان ما نشهده اليوم، يتجاوز هذه الرؤى النيّرة، حيث يلجأ البعض الى تغيير الاختلاف الى خلاف.. وهو فهم اعمى لا علاقة له بالبصيرة التي ننشد نشرها بين البشر ..

ذلك ان أي إنسان لايمكن ان يكون نسخة من الآخر في تفكيره وطبيعة تكوينه ومسار حياته.. فقد خلقنا الله امماً وشعوباً لنتعارف.. ((وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)) ولم يقل لتخاصموا وتعتدوا ويقتل بعضكم بعضاً .

ولو ادرك اولئك الظلاميون المتطرفون التكفيريون معنى الاختلاف؛ لما استهدفوا الابرياء وجعلوا حد السيف سبيلاً لنشر اهدافهم الدموية التي تستبيح حياة البشر كما تستبيح الخراف ..

إن الاختلاف.. تبادل خبرات وافكار ورؤى، والسير على وفق رؤية احادية جامدة، من شأنها ان تجعلنا في خندق ليس بوسعنا الخروج منه.. في حين يمكن لتعدد الأفكار ان تصل بنا الى شواطيء الأمن والسلام والتفاهم والتفاعل المشترك على كل ماهو خير وبناء ومتقدم ..



جماليات ثقافة الاختلاف

سئل احدهم : ماالجمال ؟ قال: السرور قالوا : وما السرور ؟ فأجاب : الامن ، فانت لا تجد في الدنيا جمالا وراحة البال .. مالم تكن مطمئناً ، آمنا.

قالوا : وماذا بعد ؟قال: الصحة ، فانت لا تحيا وحيدا ، الطبيعة تحيطك والناس من حولك .. وبالتالي .. انت معرض للمرض وبحاجة الى من يسعفك ويطمئن على صحتك .. ولا جمال لعليل يعاني من الم .

قالوا : زدنا قال : الغنى ، فانت لا تحس بانك مكتف وسعيد بمالك من دون الاخرين .. فحياة الاخرين ، مقياس للاطمئنان على احوالك واحوال بيتك.

قالوا : وماذا تضيف ؟ قال : لا اضيف شيئا ، ولا اجد مزيداً.

من هنا تبين ان القيمة الجمالية تكمن في حساسية المرء بوجود الاخر ، ذلك ان "الاخر ضروري لوجودي" كما يقول كارل ياسبرز.

كما ان كل جميل ، لابد ان يقترن بالحق والخير ، وهي المثل العليا التي دعا اليها افلاطون.

وعلى وفق ذلك رفض ايف ميشو كل فلسفة لا تتناسب مع تطور المجتمع الا اذ كانت قائمة على مفهوم " جماليات التعدد"

وتكمن اهمية الفلسفة الجمالية في اشغالها موقعين بارزين في حياتنا هما :

المعطى الروحي ، الوجداني ، والمعطى المادي ، العقلي.

واجتماع الوجدان مع العقل هو الذي يعطي للاشياء عافيتها وفتنتها وجمالها وتواصلها وتفاعلها وامتدادها .. في حين يشكل الاظهار ، والمرئي والبين معطى مجردا ، وظاهرة عابرة ، الا اذ ارتبط بالوعي والادراك والانتباه ..

عندئذ يصبح للجمال قيمة وبهاء وعطاء مثمر .. وهو ما اكده هيجل عندما رأى " ان الجمال هو التجلى المحسوس للفكرة " ذلك ان الاشتغال الابداعي " اسمى من الجمال الطبيعي بوصفه انعكاسا للروح".

فيما رأى ماركس ان : " الجمال .. نشاط اجتماعي ، ابداعي ، عملي ، يتمثل في جوهر الانسان ، في جعل الطبيعة تحت هيمنة،

واكد ديكارت هذا المفهوم ذاته عندما نظر الى "القيمة الحسية والعقل في الجمال".

من هذا المنطلق نتبين ان تعدد الاراء واختلافها يقع في قلب المعطى الجمالي بوصفه ينظر الى الانسان ، ليس بوصفه كائنا مفردا ، معزولا، وحيدا ، مجردا عن الاخرين ، وانما تكمن قيمته بوجود سواه من الناس الذين لابد له من التعامل معهم على وفق القبول والاعتراف بوجودهم واحترام افكارهم وانتماءاتهم الدينية والفكرية والقومية ، والارتقاء سلوكا في النظر الى اخطائهم في التسامح معها ، والدفاع عنها والقبول بها عند وجودها صحيحة ، صادقة ، سليمة.

نعم : ذلك ان التباين في الاراء ، لا يلغي قيمة هذه الاراء ، ولا يفقدها الاهمية ، وانما تجد في هذا الاختلاف ظاهرة وعي وادراك وانتباه ، بوصفها ظاهرة تجعلنا نصغي الى جملة رؤى ، نصطفي من خلال الحوار .. اكثرها صوابا ، واهمها موضوعية..

ولنا في رسول الله (ص) اسوة حسنة :

حيث اختلفت قبائل قريش في من له شرف اعادة الحجر الاسود الى مكانه بعد بناء جدران مكة المكرمة .. وكاد الاختلاف يتحول الى خلاف وقطعية ونزاع حتى اضاء رسول الله بعقله الراجح هذا الاختلاف بان القى بثوبه وجعل كل قبيلة تمسك بطرف الثوب الذي حمل عليه الحجر الكريم .. فرفعوه جميعا ووضعوه في موضعه.

هنا استثمار ذكي لكيفية توظيف الاختلاف والانتقال به الى ان يكون بناء وفاعلا وموحدا لحل اسمى يتفق الجميع على احترامه والوقوف منه موقف الاجلال والتكريم.

وهكذا نجد الطبيعة نفسها ، توجد لنفسها تنافسا في بهاء الارض والسماء ، وفي تنوع الازهار ، وفي تعدد الطيور ، في اختلاف الفصول ، وتباين البشر فوق الكرة الارضية ، بحيث جعلهم الخالق "شعوبا وقبائل ليتعارفوا".. ولم يقل ليتنازعوا ويتخالفوا ويصفي بعضهم وجود البعض الاخر.

كذلك نجد في الآيات الكريمة:

" ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة .." و" لكم دينكم ولي ديني" و"لا اكراه في الدين" دعوة ربانية صريحة الى قبول الاخر والتفاعل معه..

كما ان الاعجاز يكمن في " ظاهره وباطنه وحده ومطلعه" كما يقول الامام علي بن ابي طالب (ع) وفي هذه الصفات المتعددة تظهر القيم الجمالية المثلى ..

" ان حياتي ليست تهديدا لحياتك " كما يقول ديفيدها رتمان ، و "قد اكره افكارك ، لكنني سأدافع دائما عن حقك في التعبير عنها" على حد قول فولتير . وحرية اي واحد منا " لا تستقيم الا في انفتاحها على الاخرين " على وفق رأي اسبينوزا..

وهكذا .. يصبح الاخر مصدرا اساسيا لمعنى الحرية التي نمارسها في حياتنا اليومية ، بوصفه كائنا يحس ويفكر ويعمل على وفق ما تمليه عليه ارادته ووعيه وتصوره ووجدانه ، من دون ان يتقاطع مع سواه من الناس الذين يماثلونه في الحياة والعمل والمسؤولية..

ان الآلة الصماء ، لا تعمل الا اذا جهزت شكلها وطبيعة عملها مع آلات واجزاء اخرى تتعاون معها وصولا الى نجاح مهمتها في الانتاج..

اذن لايصح .. ان نبحث عن انسان ، هو نسخة منا . فمثله لايمكن وجوده ابداً ، ولكن يمكن ايجاد افراد وجماعات .. يشكلون في مجموع آرائهم .. رؤية موحدة للوصول الى الهدف المرجو..

وعلى وفق هذه المفاهيم نرى ان ما يسمى (الامن الثقافي) لم يعد مقبولا حين يعتمد الخطر والقمع ، وانما يمكن مواجهة الثقافة السلبية التي تكمن في الانتحار والارهاب واعمال العنف ، بثقافة ايجابية رصينة ، تنطلق من العقل والتأسيس لوعي منطقي يواجه الحقائق بالحجة ، والاقناع والبرهان ، والادلة السليمة النابهة..

لقد مضى قمع وحجب ونفي وابادة الفكر الاخر .. فاللاخر منطوقه وخطابه وادلته .. ولا يصح ان نرى في ثقافة الاخر .. غزواً واحتلالا وهيمنة .. ويمكن لنا مناقشة الاخر من خلال مفهوم (الاختلاف الثقافي) الذي يدرس بدوره معطيات (ثقافة الاختلاف) التي تتمثل فيها التعددية بكل معطياتها وآفاقها ومنطلقاتها بعيدا عن

التلقين و الاعمى والحفظ الذي يعبره النسيان من دون الخوض في جدل الافكار وتلاحقها ومناقشة معطيات كل ثقافة تضخ خطابها.

ولنا في تجارب الاعلام في الثقافة العربية : رفاعة الطهطاوي ، قاسم امين ، طه حسين وغيرهم .. وانصرافهم الى دراسة ثقافة الاخر، دراسة متأنية قادتهم الى تعليم المرأة والحجاب وتعدد الزوجات واتقان اللغات الاخرى والانفتاح التنويري الذي اعتمدوه سبيلا موفقا في تطوير المجتمع العربي عموما ، والانتقال الى مجتمع مدني لا تحكمه ولا تفرض عليه عمليات قمعية تسلطية..

ان للاخرين معتقداتهم ودياناتهم ولغاتهم وثقافاتهم وتاريخهم يعتقدون بصحتها ويذودون عنها .. مثلما يفعل كل واحد منا .. ومثلما نتمثل حياتنا ، يفترض ان نتمثل ونحترم بل وندرس ونتبين وعي الاخر .. حتى نتبين حقيقة ما نحن فيه من العالم والبشر الذين يحيطون بنا .. ذلك اننا بتنا نحيا في عالم لم يعد مجهولا بل بات يعد (قرية) كما وصفه مارشال ماكلوهان..

" ان الجمال مبدأ تخط .. فكن رائيا" حسب بودلير ..

وامامنا حين نختلف ان : نفهم ، نؤل ، ونفسر ، ونحكم ... حتى نصل الى ما يجمع بيننا على وفق افضل السبل ، واتم صورة ، وانضج نتيجة..

فهذا هو السبيل الى جمالية الاختلاف الذي نصل من خلاله الى تدبير امور حياتنا ، ونتوجه من خلاله الى بناء مستقبلنا الافضل..

وبعكس ذلك سوى تضيق بنا العيون حين نرى ، بحيث لانبصر خارج مديات تطورنا .. وبالتالي سنسقط في الفشل والفرقة والخلاف الذي لا نجني منه الا التخلف والدمار والموت الزؤام.. ذلك ان ارادة البقاء ارادة معرفة بالاخر ، وادامة السلام والاطمئنان والثقة معه .. وصولا الى مانَنشده من خير ينعم به الجميع..

الخطاب الريفي ..
وسبل التوجه الى خطاب معرفي جديد

بكل تأكيد .. لا يمكن للخطاب الريفي البعيد عن حضارة المدينة، انتاج معرفة حقيقية تنقل البلاد من تخلفها القائم الى مستقبل مزدهر منشود.

الخطاب الريفي .. خطاب بربري وحشي، بربريته تأتي من كونه يتقاطع مع كل ماهو متحضر ومتطور، مثلما هو وحشي يعجز عن اقامة علاقات وطيدة مع الآخرين.

هذا الخطاب المتخلف ، وجد نفسه يتبوأ السلطة هنا وهناك مدعوماً بالمال والموقع والهيمنة .. فيما وجد الناس يبحثون عن مصدر للعيش في ظل حياة ينقصها الامان والنظام ..

لذلك عجل هذا الخطاب الظلامي بالتوجه نحو ممارسة دغماتيته العمياء التي تعتد بنفسها ... وعمل على معاداة العلم والعلماء وتنكر

لكل ماهو عقلاني او حسي راق، متوجهاً نحو الاستذكار والحفظ والتلقين ، رافضاً ومقاطعاً كل ما له تماس بطرح الاسئلة الموصلة الى المعرفة.

من هنا جرى اتخاذ التدابير التي تحول دون اغناء غريزة التعلم منذ الاعمار المبكرة، وطمأنتها على اشباع كسلها بنجاحات مستمرة على مدى اربع سنوات متلاحقة من الابتدائية التي يفترض ان تكون اللبنات الاساسية الصحيحة والاولى لعملية التعلم والتعليم.

هذا الاجراء الذي من المقرر اعتماده في المدارس الابتدائية، من شأنه ان يسحب العملية التعليمية والتربوية والمعرفية عموماً الى مناطق اضافية جديدة للتخلف، والعمل على اغناء الخطاب القروي الذي يعاني من عقدة الجهل والكسل والتخلف، وحتى يساوي نفسه مع الاجيال اللاحقة، بدأ يعمل على سحبها اليه، بدلاً من تغيير حاله والانتقال الى تأهيل نفسه لكي يواكب متغيرات الزمن.

هذا الخطاب البربري، هو نفسه خطاب الطغيان الذي اراد ازاحة اللغات الوطنية عن اهلها ، وهو نفسه الخطاب الذي عمل على ارادة الحزب الواحد والحكم بمزاج لا قانوني واحد ... وهو ذاته الذي اخذ يحكم على وفق مبدأ احادي ينطلق الماضي المقطوع الصلة بالحاضر .. وهو امر لا يؤدي بالنتيجة الا لمزيد من العسف والظلامية والجهالة المستديمة.

ومادام القوي يحكم والاكثر عدداً يفرض والاكثر جهلاً يعمم جهله، والاقرب الى هذه الفئة هو الاهم .. فأننا بالمحصلة النهائية، لن نجد طريق المستقبل سالكاً.. بل نحن نتوجه الى زمن صدئ .. يسود فيه المسؤول الذي لا يسأل عن مال عام هدره، او اجراء سلفي عمل على اعمامه، او نور مشع اطفأه.

سيتكرر الخطاب الريفي البربري اذن .. مادام العقل النير يهاجر او ينزوي بعيداً عن الغدر، قريباً من الاهمال، ومادامت الاسئلة الكسولة والنجاحات الكاذبة والمظاهر الوهمية هي السائدة..

نعم .. لن تكون هناك تربية مستقيمة، ولا تعليم يشد طالبيه الى التعلم الحق، ولا معرفة معمقة، اذا كان الخطاب الجامد والساكن والساكت عن الخطأ .. هو السائد، وهو المنشود والمقصود والملبى كذلك، قد اخذ مساحته التي الغت كل سبل وقنوات الثقافة والابداع واغناء الحس الجمالي بحقائق الاشياء المحيطة بنا.

واذا لم ننتبه الى ما يجري حولنا من تخلف وعتمة وممنوعات مستمرة، فأننا سنجد انفسنا في عالم نحس ينقلنا الى عصور سحيقة في القدم، وندق الحجر على الحجر بحثاً عن شرارة لاتجيء، او نتوسل الطبيعة حتى تمن علينا بقطرات مطر علها تنقذ ظمأ نفوسنا الى الحياة واراضينا الى الانبعاث.

نحن نتقدم الى الخلف، هذا ما ينبغي لنا معرفته جيداً .. ومؤشرنا على هذا، واقع الغذاء الذي نتوسله ونتسوله من الخارج وبجميع

مفرداته.. حتى اصبح الطبع فينا البقاء على هذا الحال الذي لا حال لنا فيه ولا قوة..

ازاء ذلك، لابد ان نسأل : كيف تقوم دولة لاتؤمن غذاء لرعيتها، ولا تعليماً لاطفالها، ولا متنفساً لمثقفيها، ولا عدالة او نظاماً او حقاً يبطل الباطل المحيط بعوالمها ؟

ان القرية مرهونة بمحيطها وعزلتها، ولنا ان ننقلها الى التحضر، لا ان تسود القرية وتحكم الناس على وفق ما تعرفه وتوارثته .. من دون ان يكون لها تماس بمتغيرات الحياة الجديدة التي ننشدها ونمني انفسنا اللحاق بركبها.

الخطاب الريفي..خطاب ماض افل، وخطابنا المنشود.. خطاب عقل ومنظور متغير.. ينشد الانسان بماله من رصيد معرفي وقدرة على التغيير ..

ثقافات العالم .. عراقياً

الى اين تؤدي المظاهر والاداء الاستهلاكي في حياتنا؟

نحن مفتونون بالعالمية ، في وقت لا نأخذ منها سوى قشورها !

هذه (العالمية) نجدها في اسواق مفتوحة على كل صغيرة وكبيرة، وعلى كل حسن ورديء ، وعلى كل ضار ونافع ، وعلى كل مغشوش ومخادع ووهمي وكاذب وفاسد وكاسد وسام وقاتل بدءاً من الغذاء والدواء الى الاسلحة التي يفترض ان تكون عوناً لنا في استتباب الحياة الآمنة في ربوع البلاد .. لنتبين انها تشكل عاملاً مساعداً على توسيع رقعة العنف في كل مكان .

واتسعت رقعة الاهتمام بـ(العالمية) هذه من مداها القطري والعربي والاقليمي والاسلامي ، ليتحول دفعة واحدة لمغازلة العالم على وسعه .. من دون ان تكون هناك جاهزية للعراق تؤهله لان يكون بلداً آمناً مستقراً ينتقي بأمواله ما هو جيد وضروري ومتقن ومفيد لصالح ابنائه .. ومن دون تفكير ودراية باهمية ان يكون للبلاد ما

تنتجه لناسها من غذاء ومن ضرورات يومية يمكن تأهيل العراقيين لانتاجها محلياً ..

وقد تجاوز هذا الواقع الحياتي المتردي الى (فتنة) مغازلة العالم الخارجي بالمؤتمرات والمهرجانات .. حتى وصل الحال الى اقامة (مهرجان الزهور العالمي) فيما اصبح العراق اكبر مستورد لتموره وخضراواته وفواكهه وحبوبه وحتى ماء شربه .. وهو الذي كان مصدراً اساسيا لها من بين مدن العالم .

وما من وزارة عراقية لجأت الى قراءة العراق اقتصادياً وثقافياً .. ووضعت على وفق ذلك استراتيجية لعمل وطني حقيقي يمكن ان يسهم في تطوير البلاد وايجاد سبل افضل للعيش من خلال ما هو موجود ومتوفر في العراق من مواد اولية وطاقات بشرية او عقول نيرة قادرة على بناء البلاد بناء محكماً .

ان الامور لا تقاس بارتفاع مستوى دخل المواطن – الموظف تحديداً – وانما تقاس بمدى الاستفادة من هذا الدخل في تحسين الحياة العامة للمواطن الذي يعاني من فقدان الامن والاستقرار والاطمئنان على صحته في تناول شرابه وطعامه ودوائه ..

وفي امكانية الاطمئنان على غده من جملة السلبيات المحيطة به ، وهو في بيته وفي عمله وفي الشارع الذي يسير فيه.. وفي عدم تهديده لانه ينتمي الى مذهب او قومية او بشرة سمراء او سوداء او شقراء او عشيرة او منطقة او اسم او لقب .. كل هذه الامور مجتمعة من المهام

الاولى الملقاة على الدولة التي تحفظ له حقوقه بوصفه انساناً .. من حقه الزام البرلمان بتشريع قوانين من شأنها ان تكفل له حياة كريمة ، وحكومة تتكفل بتحقيق هذه الحياة على ارض الواقع .

لكن شيئا من هذا كله بات غائباً ...

العراقيون لا يعرفون اين تذهب ثروات بلادهم ، كما لا يعرفون لماذا يتخم المسؤولون ونحفظ لهم حياتهم من كل مكروه ، فيما يظل المواطن تحت رحمة من لا رحمة لهم .

فيما تصر الوزارات والدوائر وحتى الاقسام على اقامة (نشاطات) عالمية وتضييف من شاءت من بقاع العالم لتغدق عليهم ما يشاءون .. فيما لا تتوفر للعراقيين الحياة الادنى لعيشهم بوصفهم بشراً !

نعم .. الانفتاح على العالم والاكتساب من خبرات الشعوب ونظم وقوانين العالم .. مسائل في غاية الاهمية .. ولكن هل تعلمنا من هذه المهرجانات والنشاطات والمؤتمرات والملتقيات (العالمية) شيئاً ؟

كل ما تعلمناه لا يخرج عن اطار المظاهر الكاذبة والمخادعة والاستهلاكية التي تصرف فيها الاموال الطائلة من دون جدوى الا ما يعبئه البعض في جيوبهم من اموال فائضة عن حاجة فقراء ومتسولي ومرضى وجرحى وشهداء العراق !!

ان وطناً لا يحفظ حياة آمنة وكريمة ومستقرة ويطمئن ابناءه في خبزهم وعافيتهم وسعادتهم ليس وطناً وانما هو ارض بور لا تصلح للعيش ..

من هنا نحتاج الى من يتطلع الى حياة الناس .. الى العراقيين الذين لم يبق فيهم عرق لم يشهد الاذى ويترقب الموت في كل لحظة ، فيما ينعم (القائمون على شؤونهم) في ترف الخضرة والمهرجانات العالمية الحسنة ذهاباً واياباً ..

حتى صار الواحد منهم يرى جنات عدن .. فيما يقاسي العراقيون لظى جهنم ولظى قوم لا تقوم في اذهانهم ذرة من شرف مسؤولية وطن يباع وشعب يهان ويمزق في كل لحظة ..

فهل نحن مقبلون على ثقافة سلبية تتسع لكل هذه الاحقاد والدمار والشرور مجتمعة .. او ان المستقبل يعد بالآمال وببارقة ضوء ؟

سنتفاءل على الرغم من كل ما جرى ويجري .. سنتفاءل ولا بديل لنا سوى التفاؤل .

النقد في منظورين: الجفاء والوفاء

من العجيب والغريب في حياتنا الثقافية ان اسماع مثقفينا ليس بوسعها الاصغاء ، الا الى صدى اصواتها هي اولاً ، ومن ثم الى من يعزز هذا الصدى ويؤكده ويرسخه .. وان كان نفاقاً ، وان كان كذبا، وان كان زائفاً..

والاعجب والاكثر غرابة من ذلك كله، ان الوعي النابه من الناس، يملك ثقة بنفسه وبما يكتب وبمن يسدد اليه اخطاءه وينبهه الى عثراته .

فالمرء.. يعطي بقدر ما يملك ويعرف ويدرك ويعي .. ولسواه رؤى آخر، قد تلتقي او تختلف معه ، لكنها في جميع الاحوال ، يفترض الوقوف عندها ومراجعتها والعمل على معرفة مقاصدها واهدافها ومصداقيتها .

نعم.. هناك من يلغي ويسيء ويرفض ويعدم وجود الاشياء كلها.. فليكن كل هذا، ليكن، شرط ان يبرهن ويحدد ويكشف عن

مكان الخلل، وعن سبب الغاء مشروع ومحو حضور وهو موقف لا يختلف ابداً عن الوجه الآخر الذي يمجد ويباهي ويحتفل بمشروع ثقافي او مادي معين.. شرط ان يجيب عن سر هذا البهاء، وعن الق هذا المشروع .

المشكلة تكمن اذن في متلق (مثقف) يعد نفسه محصناً من الاخطاء والسلبيات، وما سواه الا عدو لدود، ومشعل حرائق يفترض ان يلقى في قلب النيران التي اشعلها، وفي احسن الاحوال.. يرى هذا الجمع من (المثقفين) ضرورة ان ينظر الى النقد والنقاد من زاوية التجاهل والاغفال والاهمال.. وطي ما كتب وما قيل وما ورد هنا .. في موقع الكتروني او صحيفة يساء النظر الى صوت الحقيقة الوارد فيها .

النقد.. رجاء حوار مع الآخر ، جسر ذهني ومع من نبادله نسمة هواء ، وابجدية حروف انه ليس قطيعة ولا خلافاً ولا جفاء ولا نداً ولا خصماً ولا ثاراً .

النقد.. حقيقة ما ادرك ، ولك حقيقة ما تدرك .. وادراك كل واحد منا ملك صاحبه ، وله ان يباهي نفسه به، وله ان يتأمل فيه ويراجعه ، وله كذلك ان لا يأخذ به وان يسدل الستار عليه .. هذا هو رجاء النقد وحريته ووجوده ، وبغير هذا الفضاء المتاح ، ليس بوسعنا ان نفكر ونناقش ونضيف او يضاف لنا .

من هنا نرى ان دائرة الجفاء ، تبدأ من جهل مطبق للعملية النقدية ، ومن غياب تام لمفهوم التربية النقدية المنفتحة التي نأمل ونمني انفسنا

ونحن من نزعم ونطالب ونضحي من اجل حرية الكلمة .. فلماذا يتم اغتيال الكلمة في السر والعلن ، ولماذا يقف حراس الرقابة ويطلقون النار على الكلمة او يعتقلونها في افضل الاحوال ؟!

من العجب ان يحدث هذا في الاوساط الثقافية ، استثناء من الاوساط الاخرى التي قد تسوغ لنفسها الاسباب والنوايا الخفية .. وماهي في حقيقة الامر تملك نطفة من نية ، ولا خطياً من خفاء .

العلن .. سيد الاشياء وشمسها .. لذلك عد الخفاء قمراً تستره ظلمة الليل .. وهو يسرق نوره من بهاء الشمس.

فهل يريد الجفاء ان يمسك باللعنة حتى تصبح طلقة ، وبالسيف وهو في قمة الصدأ .. حتى يدمي ويلوث ويثير ويندد .

النقد .. لا يشتم ولا يسيء ولا يتعامل مع مفردة (الجفاء) ابداً ..

النقد ، صديق حميمي ، مخلص بكامل النقاء .. وهو يمعن ويبصر ويحكم ويحتكم الى موازين ما يعرف ، لا الى ظلم من لايعرف للعدل سبيلاً .

النقد .. بصيره نزيهة ، ومهمتها الاساسية ان ترى الاشياء بعيونها لا بعيون سواها .. فيما سواها يريد ان تبصر الامور كلها بعيونها هي وليس بعيون احد سواها .. وهذا هو الخطأ والعجب والغرابة معاً .. وهذه هي القطيعة بين من يهتم برؤاي ، ومن يريدني ان اهم رؤاي وارى برؤاي حتى اكون صديقاً زائفاً ، ومرشداً الى طريق محفوف بالعقبات والمصدات .

من هنا .. نحن بحاجة الى تربية نقدية حقيقية ، والى منظور جديد، يرى في الآخر ما قد لا يراه في نفسه .. ولا يأخذ به الظن انه بديل ، فلا بديل عن الباطل سوى الحق ، ولا سبيل الى النجاح الا الانتباه والنظر للاشياء بعيون متسعة ، بعيداً عن التأويلات الفجة ، والجفاء الغفل والنتائج المرة .

في الخطاب الاعلامي

الاعلام . علم له منطقه ومعارفه واساليبه ومسوغاته وخطابه الخاص به.

هذا الاعلام الذي ينضوي في منظومة العلوم الانسانية، يشكل محور الفعل والتأثير والهيمنة على عقول ومشاعر الناس في كل مكان حتى غدت الحياة الراهنة مرهونة بالميديا عموما والحروب الباردة التي تتفوق في احيان كثيرة على الحروب الساخنة التي تلقي بظلالها على الصراعات والازمات التي تجتاح العراق وبلدان العالم كافة.

الاعلام .. لم يعد مهنة من لا مهنة لهم ، ولا بروغندا للمسؤولين والسياسيين الذين يفتقدون الى معرفة الخطابين : السياسي والاعلامي معاً، ويتعاملون مع العلمين كهواة وكمعلنين عن انفسهم وتوجهاتهم واحزابهم باساليب فجة ، ولم يعد احد يتعامل مع بعضهم

باحترام ولا يصغي اليهم بوصفهم مجرد معلنين ودعواتهم مكشوفة الهدف .

الاعلام.. غدا علما اصيلا ، يتطلب الدراسة والمعرفة والمهنية فضلا عن الموهبة التي تتطلب استلهام الواقع ونقل صورة على نحو جذاب ونابه ومؤثر وفعال وقائم على المعلومة الدقيقة والصدق والدراية التامة بكل تفاصيله ومحاوره وخلفياته وابعاده.

هذا الاعلام الفاعل والصادق ، لابد ان يقوم على العملية الدقيقة ،لا الذائقة العابرة ، ولا الخاطر السريع ، ولا الرغبة الجامحة ولا الغرض القسري ، ولا الانطباع المدفوع الثمن ، ولا اوامر الاغراء المالي والاداري او التهديد او التزوير والتشويه او القمع اوالتضليل.

علم الاعلام .. علم موجه نحو اكتساب خبرات معرفية وادوات عمل موضوعية دقيقة ، يمكن ان نرصدها بوضوح في كلية الاعلام في جامعة بغداد.

هذه الكلية التي تتعامل مع كل وجوه الاعلام من بحوث ودراسات ومتحف وصحافة واذاعة وتلفزيون ومسرح وسينما ، ومن قبل ملاكات امتلكت قدرات عالية وتفوق مشهود لها ظلت بلا اعلام يكشف عن حضورها ويكشف عن فتنة وجهها المضيء!

وظل جمع كبير من الاعلاميين والفنانين ، يجهلون تماما ما تتوفر عليه كلية الاعلام في جامعة بغداد .. من قاعات واستوديوهات سينمائية وتلفزيونية واذاعية حديثة ، فضلا عن صحيفتها نصف

الشهرية (الصحافة) التي يشرف عليها عميدها الصحفي الرائد أ. د. هاشم حسن الذي يشرف في الوقت نفسه على المجلة الفصلية العلمية المحكمة (الباحث الاعلامي) ويشاركه في علمية الخطاب الاعلامي نخبة من خيرة الاساتذة بينهم : الشاعر د. محمد رضا مبارك والقاصة د. ارادة الجبوري ، وعدد من الاعلاميين والاعلاميات بينهم :د. كاظم المقدادي د. سهام الشجيري ، د. محمد فلحي د. حسن كامل د.حمدان خضر سالم . واسماء ناصعة اخرى.

هذا المناخ الاعلامي الذي تحتضنه كلية الاعلام ـ اساتذة وطلبة وادوات عمل وتقنيات حديثة كله .. لا يأخذ اية مساحة من الانتباه ولا تسليط الاضواء التي تستحقها من قبل الاعلام والاعلاميين!

في حين نجد ، وعلى العكس من ذلك ثمة من يعد نفسه صحفيا ومحللا سياسيا واعلاميا محترفا لا يفقه ابسط ابجديات العمل الاعلامي ، وانما تقدمه الفضائيات وعدد من الصحف وحتى المكاتب الاعلامية في الوزارات و نقابة الصحفيين بوصفه .. عارفا في شؤون هذه المهنة الاثيرة ـ الصحافة والاعلام في وقت لم تتبين معطيات علم الاعلام ولا ابعاده ومدياته ومنطلقاته وخبراته وهو الامر الذي يؤدي الى ابتذال هذه المهنة من قبل الجهلاء الذين باتوا يتحكمون اليوم بالاعلام متجاوزين اساتذتهم والجذور الاصيلة لذوي الخبرات المرموقة لمهنة الصحافة والاعلام.

ازاء هذا الحال الذي نشده في الخطاب الاعلامي المعتمد رسميا والجاهل علميا لا بد ان تكون النتائج التي تلقي بظلالها على المتلقي سلبية ومن ثم اللجوء الى (محكمة النشر) وذلك بسبب انتقال هذا الخطاب من مساحته السابقة المحدودة الى ان يصبح ظاهرة تسيء الى العقول والنفوس معا ، وتلحق الضرر بالافراد والمجتمع عموما بوصفها خطابات غير مدروسة ولا متأنية ، وانما ترد على السنة وكتابات عدد من الاعلاميين والصحفيين الذين يفهمون الاعلام على انه (مع او ضد) والـ (مع) في العادة لا تتجاوز الاساليب الدعائية النفاقية المبتذلة و(ضد) لتأخذ صيغة التشهير والشتيمة والسخرية والاساءة المتعمدة والكاذبة .

ان كلية الاعلام .. بحضورها العلمي الجاد والرصين ، يمكن لخريجها ان يكونوا البدائل الحقيقية المعمقة والمهنية والعارفة والمجتهدة التي يفترض بها ان تأخذ دورها في جميع الصحف والقنوات الفضائية والاذاعية والمكاتب الاعلامية في الوزارات كافة .. وصولا الى خطاب اعلامي سليم يخرج من صيغته الراهنة الفجة التي تسيء ليس الى علم الاعلام حسب ، وانما الى المتلقي الذي يبحث عن الحقيقة والمصداقية من خلال متابعته ورصده للخطاب الاعلامي الذي بات في معظمه يفتقد الى العلمية والمصداقية التي نحن بأمس الحاجة الى وجودهما في اي خطاب ـ اعلامي يريد ان يحقق اهدافه المرجوة في حياتنا الراهنة اليوم.

حداثة التخلف

يعد البعض من مثقفينا مفهوم الحداثة بوصفه شكلاً مجرداً من المضامين والانصراف كلياً نحو الغموض والعناية المطلقة بالاشكال المجردة واضفاء شتى الصفات عليها.

هذا الفهم..قد يكون مقبولاً ومنطقياً في مجتمعات متحضرة وجدت سبيلها الى الامن والسلام والطمأنينة والاستقرار،وباتت تبحث عن مبتكرات جديدة في كل شيء،ولم تعد الاشكال والمضامين ترضي طموحاتها المشروعة التي لاتتوقف عند حدود..لذلك راحت تبحث عن معطيات وآفاق جديدة.

لكن مجتمعاً قلقاً ومتوتراً ويعاني من التخلف في شتى الميادين..لايحتاج الى ابهار وتزويف وجداول وجمل عمياء،بقدر

حاجته الى وعي والى تحريك الساكن والمجهول والمغيب والكسول والمحبط في الحياة..

ان روح المواطنة والانسانية وقيم الصدق والفضيلة..كلها باتت معدومة في حياتنا..بعد سلسلة الضغوط والممارسات السلبية التي واجهناها في ميادين عدة..فمن يعيد للمجتمع ضوء دروبه والق ضميره وموضوعية عقله سوى الثقافة؟

ولو كنا اجتمعنا على صدق الكلمة ونبل التوجه وضوء الضمير..لما كان قد جرى ما جرى في حياتنا التي تعاني من فوضى شاملة وفي عدة وجوه..وما كان ليحدث كل هذا التخريب في البنى والمؤسسات والمصالح العامة..بل ما كان ليحدث هذا الخراب في حياة الانسان نفسه،بحيث لم نعد نثق بائمان أقرب الناس الينا،ولم يعد أي واحد منا يفكر بجدية اي عمل يقوم به.. فهل يصح هذا في مجتمع انساني يلغي علاقاته مع ذاته ومحيطه والعالم المرئي أمامه؟

اننا نعد انفسنا من البلدان الغنية بثرواتها الطبيعية،فكيف سيكون الحال اذا كنا من بلدان جنوب شرقي آسيا التي فقدت في الزلازل والفيضانات أكثر من (150) ألف انسان واصبح اكثر من مليون ونصف المليون بلا مأوى؟

او كنا بلداً يعاني من الجفاف او الفيضانات او البراكين او الطبيعة المجردة من العطاء؟

لقد نقلت الينا الفضائيات صوراً بسيطة وعابرة لعدد من المجتمعات المنكوبة وكيف هب العالم لمساعدتها..وهو أمر يستحق ويدرك أهمية مساعدة بعضنا للبعض الآخر..حيث شاهدنا كل مواطن يختار المساعدة الملائمة له من بين مجموع المساعدات العديدة التي قدمت للمساعدة..تاركة المساعدات الاخرى للآخرين حتى يتم لهم إختيار ما يناسبهم..ولو حصل مثل هذا المشهد في مجتمعنا لكنا رأينا من يحمل كل فائض عنه لغيره من دون ان يستأثر بها لنفسه..لا لنجدها في اليوم الثاني تباع في الاسواق الشعبية!

هذه المشاهد.. جزء من وعي وثقافة وقيم موجودة في مجتمعات فقيرة مدمرة.. في وقت نراها في مجتمعنا وقد تحولت في احيان كثيرة الى عملية نهب وتدمير وتخريب وتصفية وتكفير وذبح للآخر!!

فهل يصح الآن الحديث عن تجريد الثقافة من مضامينها،والآخذ بعين الرضا كل ماهو شكلاني وتجريدي وتقليدي للمجتمعات التي قطعت شوطاً بعيداً في إحترام الآخر..وفي احترام الحق العام وفي النظر الى الحضارة بوصفها سلوكاً اولاً؟

نحن لانريد العودة للكتابة بحبر الماضي السلفي أبداً..ولا نلتفت الى الماضي ابداً..فهو صفحة انطوت بكل ما تحمله من رؤى؛ وإنما نسعى ونؤكد حقيقة مانحن عليه الان من ترد في جميع الامور.. حتى اصبحت معظم الشركات الاجنبية تتعامل معنا على هذا الاساس..حيث تصدر الينا اردأ بضاعة وأسوأ غذاء ودواء. ولم تعد تأبه الى اننا بشر نحتاج الى علاج ناجع،وغذاء صالح وبضاعة متينة لايستهلك فيها (برغي) لتهمل كليا!!

هذا مرهون بمجتمع تردى سلوك عدد من ابنائه،فلم يعد التاجر يستورد البضاعة الجديدة حفاظا على سمعته ونزاهته واخلاصه..بل راح يبحث عن البضاعة التي تحقق له الارباح الاكثر والتداول الاوسع.

وكذا الحال مع البقال وصاحب المطعم وعامل التنظيف وموظف الحكومة..الكل لايصرف طاقة عمل ولا يجيء بمواد جيدة،ولا يمارس مهنته بشكل مخلص ودقيق،وإنما همه الاساس استهلاك الزمن،وتسلم الاجور كاملة غير منقوصة.

لا.. احد يختلف معنا – كما نعتقد – في هذا التشخيص،لكن البعض يختلف معنا ان هذا التداول لعدد من الظواهر

الاجتماعية..لاعلاقة له بالثقافة ولا بالحداثة التي مازال عدد من زملائنا يروج لها بدعوى انه يقدم على سواه وعياً وإسهاماً وتحضراً..!

ان الثقافة وصورها الحداثوية الراهنة لايمكن ان تنجز في فراغ، او تنبت بشكل فطري وفي مجتمع مسحوق..ان الثقافة ارادة مجتمع ووعي مجتمع.. فاذا غابت الارادة وأنطفأ الوعي الاجتماعي؛ بات كل شيء ملكاً للفوضى ومشاعاً للهدر والتدمير.. فهل تهديه (الحداثة) الى سوء السبيل؟

نعم.. نحن مع كل شيء حديث،لأننا نبحث عن التطور،ونسعى للحاق بالمجتمعات المتطورة، غير ان هذا التوجه،لايمكن ان نقفز نحوه قفزاً، وانما ننتقل اليه انتقالاً منطقياً واضحاً وسليماً وصادقاً.. ومن ثم يمكن الحديث عن الحداثة وما بعدها..وعندها سنجد المناخ أهلاً لأستقبال كل جديد ومفيد متحضر..وستكون فاعلية الحداثة مورقة تواكب مسيرة حياتنا في اشراقاتها وتطلعاتها الجديدة.

الاسلام : سلام وعقل يّقِظ

الاسلام في مواجهة القوى الظلامية

من حق المسلمين ان يفخروا بدينهم، ذلك أن من مباديء الاسلام الأولى اعترافه بالاديان الأخرى، وظهور علم مقارنة الأديان لأول مرة عند المسلمين، في حين لم يكن هذا العلم قبل ظهور الاسلام، وهذا يعني ان الاديان التي سبقت فجر الاسلام، لم يعترف أحدها بدين الآخر .

ومادام الاسلام الحنيف يعترف بالاديان الاخرى ويحاورها ويعيش مع اصحابها من دون إيذاء أو تجهيل أو تهميش أو إستهانة أو الغاء أو اعتداء؛ فأن هذا يشير ويؤكد ان الاسلام دين تسامح ومحبة وتآخٍ إنساني..

فالجميع هو خلق الله، وماداموا كذلك، فأنه لايصح إيذاء بعضهم للبعض الآخر.

إلا أن مانجده الآن، ظهور عدد من دعاة الاسلام، لاهدف لهم سوى الانتقام من الآخرين الذين يختلفون معهم بالتوجه الى الله، والعمل على قتلهم وتهجيرهم ونهب بيوتهم وأملاكهم.. من دون رادع من دين او اية قيمة إنسانية..

وكل العراقيين الاسوياء، يعرفون جيداً مدى التلاحم والوئام الذي عاشوه سوية وبينهم: المسلم والمسيحي والصابئي والايزيدي وسواهم ممن لهم معتقدات تختلف مع المسلمين، لكن الجميع لم يتعاملوا مع الآخر على انه يختلف عنهم في وجوده الانساني.. والكل ينظر الى الآخر بوصفه إنساناً ومن نبت هذه الارض التي اصلّها الرب لتكون حياة حية يحياها الجميع على وفق المواطنة التي تنتمي الى هذا الوطن التي يأمن وجودها وسلامتها والارتقاء بحياتها .

اما اولئك (القوم) من الغرباء على هذا البلد وقلة من الجهلاء والمتعصبين والتكفيريين والمتطرفين؛ فأنهم لم يجدوا من حجة ولا برهان لنشر أفكارهم المتخلفة، لذلك لجأوا الى الاعمال الارهابية وتوسيع رقعة العنف في كل مكان.. والعمل على فوبيا الظلام والرهبة والحذر الذي بات يمارس ضغوطه على ضعاف النفوس والجهلاء ويكرسون جهودهم نحو براءة الطفولة عن طريق غسل ادمغتهم وزجهم في (بطولات) قتالية زائفة لأعمال الفوضى والقتل والفساد الأخلاقي على اوسع نطاق بأسم (تنظيم) يريد ن ينشيء (دولة) على وفق هذه العقليات الفجة النتنة .

وإزاء هذا الواقع المتردي الذي بات يثقل على كل واحد منا؛ لابد من مواجهته أفراداً وجماعات ودولة، بوصفه ظاهرة سلبية تضر بالمجتمع، ولابد من استئصاله بكل السبل.. وذلك عن طريق مواجهة (ثقافة) التطرف والقتل وإلغاء الآخر، بثقافة إنسانية بناءة، تعمل على ثقافة سلمية تهدف الى حياة آمنة مستقرة.. وعندما لايفلح هذا الخطاب السلمي مع تلك العقول الظلامية العقيمة، عندئذ لايجد أي واحد منا سوى سبيل مواجهة هذه القوى الا بسلاح امضى وايمان اعمق ومنظور أكثر بصيرة .

في الظواهر الكربلائية الراهنة



سنوات طويلة مرت ، لم تتح لي خلالها زيارة مدينة كربلاء المقدسة ولا سواها من المدن العراقية ، بسبب مشاغل الحياة والظروف القاهرة التي اخذت قسطاً وافراً من المآسي التي كان آخرها البحث عن قبر مجهول في مقبرة فسيحة مفتوحة على الافق ومد البصر متاحة للعراقيين المغدور بهم منذ عام 2003 حتى الآن ،والذين صاروا يعرفون بـ (مجهولي الهوية) وهي الهوية الحقيقية التي وجدوا انفسهم يفتقدون اليها في وطنهم وهم احياء من دون ان يجدوا لهم شبراً في الارض التي انبتتهم ، لكنهم حصلوا على اشبار تتسع لجثامينهم بعد رحيلهم المعلوم لدى الحكومة ، والمجهول كلياً لدى ذويهم والذي لم يعرف الا بعد رحيلهم بسنوات عدة وبالصدفة .. كما هو حال ابني

الذي انقطعت اخباره منذ اربعة اعوام ونصف العام .. حتى عثرت عليه (صورة) في حاسبة دائرة الطب العدلي ببغداد ..

وصار امري مرهون بايجاد جثته في مقبرة مجهولي الهوية بكربلاء المقدسة.

لم يكن الطريق من بغداد الى مدينة الكر والبلاء سهلاً ، وإنما كانت الزحمة ومشاهد المضايف الفقيرة شكلاً ، والغنية قلباً وحباً والفة .. تمتد على طول الطريق .

وعندما تجد نفسك في هذا المكان الذي يستعيد ذاكرة مأساوية تاريخية حقيقية مضيئة ، لابد ان تبدأ من منطقة الضوء العميق اولاً .. من زيارة مرقدي الشهيدين البارين الحسين والعباس عليهما السلام ومن رافقهما في مسارهما العسير من الشهداء الذين اجتمعوا على محاربة الظلم والظالمين .

كان التوجه الى المكان يبدأ بهذا الامتداد الطويل الذي يشغله باعة كل شيء ونقلة كل زائر .. ثم ينتقل الى المسافة الاكثر نظاماً ونظافة .. حتى تصل الى الصحن المقدس والتوجه الى مرقدي الشهيدين الجليلين الحسين والعباس عليهما السلام .. لتفاجأ بأنك قد نسيت مصابك الذي قصدت به مدينة كربلاء المقدسة .. لتتنبه الى فداحة الظلم الذي ألحق الاذى بالحسين الشهيد واخيه العباس.. وسحر المكان ضّيف طيوراً برية تستقبل الزائرين .. آمنة منهم ،

مطمئنة الى وجودهم ، محلقة فوق رؤوسهم ، شعوراً منها بالامن والسلام والاطمئنان .

وحال وصولك ابواب المرقدين الطاهرين ، لابد ان تجد نفسك في حالة ابهار وسكينة وخشوع وطهارة وحال لم تشهد مثله من قبل ابداً .

وفي مثل هذا المكان الذي لامثيل له .. تجد ان المكان يأخذ بك ويشدك اليه بحيث تمني نفسك البقاء فيه اكبر مدة ممكنة .. تعزل فيها نفسك وتطهر عقلك وحواسك واطماعك من الدنيا كلها ، ولا يبقى لك سوى ان تحب لاخيك ما تحبه لنفسك و .. انت في هذه الاجواء المطهرة ، تجدك في حالة حل من كل ما يمت الى الحياة من اطماع ومآثر ومكاسب .. مثلما تجدك تبحث عن سبيل للخلاص من كل الماضي الذي علق بك ، او تزاحمت للوصول اليه طامعاً ومستأثراً .

حتى اذا جردت نفسك بعد صلاة الزيارة واداء طقوسها .. تلح عليك اسئلة عديدة أقلها : هل يمكن ان يفكر الزائر الى المرقدين الشريفين ، ان بهذا المكان قدرة على القتل والفساد يوماً ما ؟!

كبر السؤال والحقت به اسئلة اخرى تقول : هل يحدث ان يسيء من يزور الشهيدين الحسين والعباس الى احد .. وان يأخذ به الطمع مأخذاً .. وان تغويه إغراءات الدنيا عن إغراءات الذكر الحسن والنقاء العظيم ؟

كل الاسئلة كانت مفتوحة امام بصري .. مفتقداً الى مفتاح واحد للاجابة !



كانت المفاجأة صعبة على ان يصدقها بصري وبصيرتي ..

ففي وقت شهدت فيه كربلاء المقدسة ، وقد تم الاعتناء بها وهي قريبة من المرقدين الشريفين ، وجدتها منكل بها وهي بعيدة عن سحر المكان المقدس ذاك !

كيف .. وهي مدينة السياحة الدينية الاثيرة بعد مكة المكرمة والنجف الاشرف والقدس الشريفة ، وهي تحفل بكل الزهاد والانقياء والذين يطمعون بتنقية قلوبهم وارواحهم من دنس الخطايا التي مارسوها في سلم حياتهم؟

هل يكتفي زائر كربلاء المقدسة بالمرقدين الطاهرين ، او يبحث عن الطهر في كل ذرة تراب كربلائية ؟

هذا ماكنت اعتقده وامني نفسي به بوصفه حقيقة لابد ان تكون قائمة وماثلة للعيان .. لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وشيئاً قريباً منه لم يكن ، وقليلاً اقل .. وجدته مستحيلاً في كل ارجاء هذه المدينة التي كنت اجد الجواهر المضيئة في ارواح قامات الشهيدين الكريمين الحسين

والعباس عليهما السلام .. سبيلاً الى نداء روحيهما ووشم الرسالة المقدسة التي افتديا روحيهما من اجلها ..

فأذا بالاجيال اللاحقة .. تهمل كل شيء في المدينة ، ولاتبقي حتى القليل على مدينتهما وعلى الق وجودها .. فهل يمكن هذا ؟

لم تكن حياة المدينة تنبض الا في ارواح الراقدين الاعز في نفوسنا .. فيما كانت ارجاؤها ساكنة على الفوضى والاهمال وانعدام ابسط الخدمات والحياة الانسانية في أهم شروطها ومعطياتها العادية المقبولة ؟

وفيما اعلم ان كربلاء المقدسة يكرمها كل زائر .. إدراكاً منه ان الدماء التي سالت على ارضها جديرة بأن تتحول الى زنابق معطرة ، لا ان تكون مدينة صحراوية تعاني من شظف العيش ومن الظمأ المتجذر في واقعتها الكبرى التي شهدت ابلغ مآسي العطش في التاريخ البشري .. فهل يظل هذا العطش لصيقاً بها الى الابد ؟

هذا ليس عدلاً ، ولا امتلاكاً لضمير ، ولا مسؤولية لوطني غيور..

اذن أين يكمن العدل والضمير والوطن .. ان لم يكن في كربلاء المقدسة ؟

هذا السؤال ، لابد ان يكون في مواجهة كل مسؤول في الدولة العراقية برمتها ، بوصفها معنية بالاهتمام والرعاية بكل بقعة وبكل مواطن .. فكيف اذا كان الامر متعلقاً بمدينة حية مثل كربلاء.. ؟

كيف سيواجه زائر المرقدين الشريفين ، وهو يودع المكان المقدس الأثير ..

كيف حال هذه المدينة التي يعاني أهلها من سوء الاحوال وفوضى كل شيء وانعدام كل ماهم بحاجة اليه ؟

ان الطهر والسكينة التي تهيمن على كل امرءوهو يقصد الصحن القدسي الجليل لابد ان يبحث عن الشعور بهذا التباين القائم بين مكان على درجة من العناية الجدير به ..

وآخر مهمل اهمالاً تاماً قريباً منه وعلى تماش مباشر بعوالمه لايخطيء الا بأقل من القليل المطلوب ادراكه والاهتمام به .

ان كربلاء المقدسة .. لابد ان تشهد شهوداً على درجة من المعرفة والنقاء والوطنية بحيث يحولون هذه المدينة الى معلم من معالم الالق الرفيع والانتباه المتميز الجدير به وبكل الناس الذين يعيشون فيه ويقصدونه عن حب وانتماء واجلال واكبار ..

فهل نشهد مثل هذا الرجاء مترجماً الى حقيقة ملموسة يتبينها كل من دخل ابواب كربلاء ... صار آمناً من كل شيء ؟



كنت اعتقد اعتقاداً جازماً الى ان كل من يقصد زيارة الكعبة المقدسة وقبر الرسول الكريم والائمة الابرار والصالحين، انما ينصرف

الى الآخرة طلباً للمغفرة ورجاء الفردوس والتعفف عن كل مغريات الدنيا..

وظل هذا الطقس الديني يحفر في الذاكرة التي توجه الناس الى السماء والزهد بحياة الدنيا الفانية، متجهين الى الدنيا الابقى في جنات عدن ..

لكن زيارتي الى مرقدي الامامين الشهيدين : الحسين والعباس (ع)، جعلتني اتحول عن اعتقادي ذاك، وأتجه صوب ما أرى وأسمع وأحس وأدرك طبيعة مايجري حولي ..

فقد تبينت الى ان معظم الزوار كانوا يمسكون ويقبلون المرقدين الطاهرين متوسلين طالبين برجاء شفاعة الحسين والعباس عليهما السلام علّهما يمنان عليهم كرم : عودة مفقود، واطلاق سراح سجين، وشفاء مريض، وفتح باب للرزق، وعودة غائب ..

مطالب حياتية، وحاجات إنسانية ملحة وقاهرة وصعبة تواجه اصحابها الذين فقدوا كل أمل بالقائمين على أمور البلاد والعباد لحل معاناتهم اليومية، وهو الامر الذي أدى بهم الى قصد المرقدين الشريفين في كربلاء وطلب شفاعتهما لانقاذهم مما هم فيه من البلوى والمصاب الجلل ..

هذا المشهد الملّح والمتكرر والواضح بشكل بارز ولافت، رصدته كل حواسي بدقة .. وتساءلت : هل يطلب كل هؤلاء الزوار

المستحيل، وهل يتعذر على القائمين على (العملية السياسية) تلبية هذه الحاجات الحياتية الملحة ؟

ثم ألم يسمع أي واحد منهم بحقيقة وأهمية وأصداء هذه الحاجات التي يئس أصحابها من تنفيذها .. وهي واضحة وجلية .. وأكدتها كل التظاهرات الشعبية، وعندما غرق اصحابها في حالات اليأس والاحباط، توجهوا الى المرقدين الطاهرين ..

علّ شفاعتهما تفتح ابواب الأفق أمامهم وتنيرلهم دروبهم وتيسر لهم أعمالهم؟

بالتأكيد .. لست أول من رصد هذه الظاهرة، وإنما مر بها كل السياسيين الذين زاروا الصحن الكربلائي .. ولا أعرف أحداً إستجاب لنداءات الأغاثة تلك، كما لم أعرف أحداً تبين طبيعة المجتمع الذي قصد هذا المكان المقدس .. والذي يتضح أمره وهو ينتمي الى طبقات مسحوقة في المجتمع العراقي الذي رصدت أمره تحديداً، فوجدته بالكاد يدبر قوت يومه، ويحمل معه وجبة غذائية متواضعة جداً أعدها خصيصاً لهذه الزيارات الكريمة .. وهي وجبة تخلو من الفاكهة والاغذية المترفة .. وما من أحد حمل معه ماهو متميز وينم عن إرتفاع في مستوى المعيشة إلا في حالات نادرة جداً لا يقاس عليها ولا يعتمد على حضورها في هذا المقام.

إذن .. الصحن الكربلائي، مكان رجاء وطلب حاجة وإلتماس حق من القدسية التي يتمتع بها الحسين والعباس (ع) في الذاكرة

العراقية التي أتعبتها الحاجات ودمرت وجودها من دون أن يفتح أمامها فاتح باباً واحداً يحقق لها قدراً من تلبية حاجة.

هذا المشهد الكربلائي اليومي .. مشهد دال وعميق والضرورة كل الضرورة تقضي بالانتباه اليه .. حتى لا يظل الرجاء يستحيل على الانجاز.



من حسن حظي وبهجة طالعي ان تكون الجيرة الوفية والاثيرة، مرافقة لي وعائلتي ونحن نبحث في كربلاء المقدسة عن فقيدها العزيز الذي رحل قبل أربعة اعوام ونصف العام ولم نعلم عنه شيئاً الى أن عثرنا على صورته في الطب العدلي، وتأكدنا انه قتل في اليوم الثاني لخطفه .. وكنا طوال المدة السابقة نصبر صبر ايوب مضافاً إليه إبتزاز الطامعين وشفقة المنصفين وغضب المسؤولين وطردنا من على ابوابهم كلما الححنا بالسؤال ..

كان السيد حسين علي محمد (ابو علي) الكربلائي قد اعد نفسه وجند عائلته وجعلها خافرة لأستقبالنا طوال ذاك النهار اللاهب .. مع أنني لم أقدم له سوى محبتي واحترامي مثل كل من أعرفهم ولا أعرفهم .. ولكن الرجل وأهله أجزلوا العطاء وتكفلوا بالوقت والجهد والمال لتحقيق كل مانحتاجه من كربلاء وكرم أهلها.

وكنا قصدنا (مقبرة مجهولي الهوية) بعد الزيارة .. وما كنا نعلم من كربلاء إلا صحنها الذي يتسع لكل محب وصادق ..

كان الرجل قد سبقنا الى المكان وشخص موقعه وأرشدنا الى (مكتب الدفان ..) الذي لا يختلف عن أي مكتب تجاري خدمي .. وهو ما ينشده كل قاصد لهذا المكان .. وإلا ما الفرق بين خدمة الاحياء عن خدمة الاموات وكلاهما بهم حاجة الى المساعدة والارشاد وفتح السجلات المتعلقة بمفقوديهم؟

لكن ان تتحول مكاتب الدفن الى مقاولات ومناقصات ومنافسات وعروض .. فهذا مالم أكن أعرف تفاصيله التي تحتاج الى خبرة ومعرفة دقيقة لم افقهها ..

وتكفل بالأمر خلي وصاحبي الاثير (ابو علي) هذا الكربلائي الصميمي الذي قد من نبت طيب ووعي نبيل ..

شاركني الرجل وعائلته عائلتي في همها .. فالهم يكفينا ويثقل علينا ولا احتمال لنا حتى على الكلام والدخول في المساومة على إرشادنا الى ضريح فقيدنا وترميمه وإصلاح ماعبثت الطبيعة بتراب من كنا نتوسل كل ذرة منه للحنو على شباب فقيدنا العزيز..

وأخذ الرجل زمام المبادرة الى إجراء كل مستلزمات وطقوس زيارة قبر فقيدنا الذي أفقدنا ارواحنا وسلبنا كل لحظة هدوء على مدى أربعة اعوام ونصف العام وألبسنا الحداد منذ أطفأ بهاء وجهه أمامنا ذات مساء.

سرنا في صحراء اسمها (مقبرة مجهولي الهوية) وهو مكان مخيف، لهوية غير معلومة، وجثة ترقد هناك .. فيما تنبض في أعماقنا كما مرجل الطحين يطحن لنا قلوب لهفتنا .

هذه التلة الترابية بحجم الكفين هي قبره .. لا ، ولا تلك .. كل هؤلاء من مجهولي الهوية .. هذا قبره .. هذا المربع الاسمنتي قبره والى جانبه نبتة برية بالكاد تتنفس .. ولا أعلم إن كانت تتنفس وتتغذى وتحيا من قطرات الدم التي تفصدت من تلك الطلقة التي إستقرت في رأس (أزل) ام من قدسية التراب الكربلائي الذي يحتضن جسده ؟

ألقينا أبصارنا جميعاً .. كانت الأبصار تريد أن تمعن في الاسمنت والتراب والنبتة البرية علّها تدلنا الى سبيل نرى من خلاله فقيدنا العزيز.

كان كل منا يبحث عن نفسه وذكرياته وصورته في هذا الـ (أزل) الذي أزاله الاشرار من معانقة الحياة واردوا براءته .. طلقة !

وكان (ابو علي) يوزع على روح الفقيد قناني الماء وعلب المياه الغازية .. ويحمل إبن الفقيد (برهان) حتى يسقي ظمأ والده ويستبشره بالزيارة.

كان البكاء يوحد أوجاعنا .. فيما (الدفان) يساوم على ترميم معالم القبر .. وما بين البكاء والمساومة والنظرات الخفية الى (برهان) كنا نشيع أنفسنا الى مثل هذا المكان .. علنا نكون رفقة الراحل في رقوده الأبدي، علنا نتنفس التراب الكربلائي الذي يسحق وجودنا

الذي جفت دموعه و لم يعد عطش الشهيدين الحسين والعباس (ع) ..
إلا أنموذجاً لظمأ هذه المدينة التي لم يرو ظمأها احد من قبل .. وقد
لايفعل أحد من بعد .. إلا ماشاء ربك .

الاسلام الوطني

في موازين جدلية الدين والسياسة

في الحياة السياسية العراقية الراهنة ، تدور جملة اسئلة منها :

ـ هل نحن بحاجة الى احزاب سياسية ذات مرجعيات دينية ، وهل نحن معنيون بان تكون هناك مرجعيات دينية تعمل لاغراض سياسية ؟

ـ هل يراد بالدين الحنيف ان يكون منطلقاً روحياً ووازعاً اخلاقياً وطمأنة نفسية ازاء اي زوغان سياسي مادي يفضل ويناقش ويعمل من اجل الحياة الدنيا لتكون بديلاً عن الحياة الاخرة القائمة في المخيال الاسلامي؟

ـ هل كانت للاسلام دولة ، وهل كان الرسول محمد (ص) رجل دين ودولة حتى يمكن حذو مساره ؟

ـ هل كان نظام الحكم بعد وفاة الرسول حكماً عادلاً ونموذجياً .. بحيث يمكن العمل على وفقه لانشاء دولة اسلامية قوامها الاسلام وتعاليمه ؟

ـ هل يعد نظام الشورى .. نظاماً ديمقراطياً ؟

ـ لماذا هذا الجفاء والقطيعة والصراع بين ماهو ديني وماهو سياسي؟

ـ الدين من جاذب للبشر ، الى طارد وقاطع وفاصل بينه وبينهم .. لماذا ؟

هذه الاسئلة وسواها يمكن ان تكون محور نقاشنا حول (الاسلام السياسي).

الاسلام الوطني

لم يشهد الاسلام انشقاقاً وجفاء ، الا عندما فكر اهله بالسلطة ، وما كانت السقيفة الا المنطقة البكر التي مزقت الاسلام والمسلمين .. ذلك ان المسلمين تخلوا عن العبادة ، وانصرفوا للتفكير بالسلطة .. حتى ان ابرز القامات الاسلامية التي كان الرسول الكريم يثق بها ويجلها ، تخلت عن دفن جثمانه ، بل واغتنمت هذه الفرصة وانشغال الامام علي عليه السلام بعملية الدفن ، من اجل الهيمنة على السلطة وتقاسم حكم المسلمين .. كما لم تكن دعوة الحسين الشهيد الى

العراق ، الا مؤامرة للتخلص من تيار معارض لاولئك الذين ينشدون السلطة .

الفتنة اذن كانت من اجل السلطة ، لا من اجل الدين ، فكل الاطراف تزعم انها تنطلق عن حق ديني .. فالخليفة عثمان بن عفان قال لمعارضيه : " كيف اخلع قميصاً البسنيه الله " .

فيما يقول الخليفة عبد الملك بن مروان : " والله لايامرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه " فيما رأى معاوية وابنه يزيد ان كلاً منهما : " خليفة الله " واكد معاوية : " الارض لله ، وانا خليفة الله ، فما اخذت فلي وما تركته للناس فبفضل مني " وعد يزيد والده " سيد البشر "

كيف يمكن لمن يفكر على وفق هذا المنظور ... ان يحكم وينشر الدول بين الناس ؟

ان السياسة فن وعلم ومعرفة وتسيس الامور بمعنى مسايرتها باتجاه مايحقق مصلحة البلاد والعباد .. كذلك ظل الرسول الكريم رجل دين .. يعالج ما يشغل بال المسلمين ومايواجههم من مشكلات بالحكمة والموعظة الحسنة .

فكيف يمكن للاسلام ان يحدد للعباد طرق مسارهم الذين يعدونه هو الطريق الصحيح ودونه خاطيء فيما يرى اقوام من غير المسلمين ان الطرق التي يعتمدونها هي الطرق الاسلم والاصح ؟

وهذا يعني اننا نحتاج الى من يجعل من الدين الذين يؤمن به وينتمي الى رسالته ، مسألة خاصة ومحددة بقناعاته وليس من حقه فرضها على الاخرين باي شكل من الاشكال .

وينطلق باتجاه ان مايجمعه بالاخرين .. قاعدة عامة تقوم على الوطن والمواطنة اولاً واخراً .

وفي هذا المنطلق لايراد بالاسلام تحديداً ان يكون على الضد من السياسة ومن العلمانية التي تتقاطع مع ازدواجية الدين والسياسة ولا مع الاسلام الليبرالي .

لا .. فالمسلم مواطن ، شأنه شأن اي مواطن آخر ينتمي الى اديان وقوميات وبيئات مختلفة .. وليس من المقبول جعله منصرفاً عن امور دنياه ولينقطع الى ارضاء آخرته بشكل ..

ان هذا يعني تعطيله وتهميشه والغاء دوره في بناء قيم الفضيلة من جهة ، واعمار البلاد على اسس مستقيمة من جهة اخرى .

ومثل هذا الفهم لايراد به ان يجعل شريعة الاسلام هي المصدر الوجيه في كتابة دستور البلاد وحكم البلاد .. ولا ان يرفع شعار القانون في العلن ، فيما يمارس دور الهيمنة الدينية الاحادية وفرضها على انماط مختلفة من البشر .. والتعامل معهم على وفق مذاهبهم واديانهم وقومياتهم ومناطقهم والوان بشرتهم وجنسيتهم .

ان تسويق الاسلام في ماركة او علامة مرغوبة ومقبولة من قبل الشارع العراقي الذي يعنيه ان يسود العدل والامن وان يكون القانون

سيد الموقف .. لا ان يخادع الاسلام الناس على المظهر فيما يمارس شتى ظواهر الفساد والتي باتت واضحة وجليه بحيث افقدت ثقة الشارع باولئك الذين يتخذون من الدين ستاراً لتمرير اعمال الفساد على مواطنيهم ..

لذلك وجدنا ان الشارع العراقي انقلب على اولئك الذين يسيسون الدين لاغراضهم الشخصية والضرر بالناس .. بدلاً من اتخاذ منطلقات الدين الحنيف وبما يحمله من قيم فاضلة لاحقاق الحق وازهاء الباطل .

هنا يكمن الخلل .. بين رجل الدين الذي فقد تأثيره وبريق نزاهته بين الناس .

ورجل السياسة الذين جاء باكثر من هوية من اجل تسييس الواقع السياسي لتحقيق مزيد من المكاسب لذاته .

هذا التضاد جعل المواطن يفقد الثقة بين سياسيين لايفون بوعودهم في الاصلاح المطلوب منهم ، ورجال دين لايصلحون انفسهم وما بها من عصبية وانانية وضيق افق ومصالح ذاتية فجه وطموحات شخصية وبالتالي ليس بوسعهم التفكير ـ مجرد التفكير ـ ان المال العام امانة في اعناقهم وعليهم صرفه على وفق مبادئ وطنية وقوانين منصفة وعادلة ..

ما العمل ؟

الاسلام الوطني.. هو الحل.. والاديان والاجناس والقوميات والطوائف والقوميات والاطياف كافة.. هي من يملك الحل على اسس الوطن والمواطنة.. وكل الشعوب الحية قد وجدت في الوطن السبيل الافضل والاهم الذي يمكن ان يوحد البلاد ويصون كرامة الانسان ويجعل الجميع يعيشون في وئام وانسجام مادام القانون يعدل بينهم .

اما ان تظل راية الاسلام خفاقة فيما تقترف تحت لوائها كل اعمال العنف والفساد فهذا مالايمكن القبول به ولاالعمل على وفقه من اية جهة كانت ..

لذلك .. نحن نعد الاحزاب الدينية .. احزاب تقوى وورع وطقوس ولها ان تعد جميع عناصرها على هذا الاساس ، اما اذا ارادت ان تحكم وتتسلم السلطة فلها ان تجعل الدين وازعاً من اي خطأ او زعل ، لا ان تجعله سبيلاً ينزه اصحابه من كل سوء في العلن ، بينما تؤكد الوقائع عكس ذلك تماماً .. لتكون النتيجة بالتالي فقدان المواطن الثقة بالدين والرجال الذين يعتمدونه هوية حياتهم ، مثلما يفقد ثقته باي توجه سياسي يمكن لهم اعتماده .. لانه لايقوم على العدل وانما يقوم على اغراض اخرى لاشأن للدين بها، مثلما لا شأن للحكم العادل وسيادة القانون بمعطياتها .

عليه .. نرى ان الاحزاب التي تتقاطع مع الدين .. احزاب تلغي مواطنين وتريد من المؤمن ان ينزع عنه دينه ، كما لو انه معطف يلوذ

به البرد ، او قبعة يستجير بها من الحر او قناعاً يختفى به من الآخرين .. ليدخل ساحة العمل السياسي ويحق له ممارسة اللعبة التي يفترض ان يلبس الجميع لبوسها .

هذا تحنيط وفهم قاصر واكراه تمارسه العديد من الاحزاب السياسية التي تعد نفسها علمانية ..

فيما هي تمارس بعملية العزل هذه طقساً دكتاتورياً برداء الحرية والليبرالية الديمقراطية .

وعلى العكس منها .. تجد الاحزاب الاسلامية او القومية نفسها تمارس دوراً مماثلاً عازلاً لمن ينتمي لمذهب مختلف او قومية مختلفة او لغة او منطقية معينة غير التي حددتها تلك الاحزاب لنفسها ..

هذا الواقع المرير المتشظي والمعادي والذي يعاني من تضاد وصراع مع نفسه .. لايمكن ان يكون سياسياً ماهراً يعتمد العملية والموضوعية والدقة والخبرة ، ولا دينياً عارفاً بامور دينه ودنياه وعلى وفقها يجب ان يسيس البلاد بالعدل وحكم القانون ..

المفاتيح

لن نخرج من دوائر الصراع ابداً ـ ان لم نكن نريد عددها ـ اذا بقي الجميع يفكرون بالطرق التي يفكرون بها حالياً ـ هذا اذا لم يهملوا الفكر اصلاً وينصرفوا الى مخاطبة انفسهم .

وليس ذلك ببعيد .. فما زال عدد من الاسلاميين يعتمدون النقل ويرفضون الاجتهاد واستخدام العقل ، لان العقل في رأيهم يقود الى الخطأ والخطيئة ..

ومن الافضل والاهم بل والواجب الملزم اكراه الناس على عدم استخدام عقولهم والاصراف كلياً الى عدد محدود من الناس للتفكير واتخاذ القرارات وحسمها نيابة عنهم ..

هذه جناية على الدين الذين جعل من العقل بصيرة ، وجناية على الانسان بوصفه عقلاً لا عاطفة مجردة تعتمد اهواءها حسب .. وجناية عن الوطن بوصفه الارض التي لاتنبت الا مايلقى في قلبها من بذور صالحة.. غير فاسدة حتى يصبح بوسعها ان تنبت وتزهر وتثمر .

هذا هو الحل الذي ليس من الصعب ادراكه وليس من الصعب العمل على وفقه.. شرط ان نحتكم الى قانون عادل ومنطلق نزيه.

العنف/الثقافة السلبية والتدميرية

عن العنف .. !

(1)

هذا الطبع الخشن والمتوتر والقلق والمغرق بالحزن.. لماذا يملأ علينا صفحات عديدة من حياتنا ؟

هذا العنف الذي يمتد من الغضب في جدران البيت؛ ليمتد الى شارع حذر يزرع فيه حقد البعض.. ليتحول الى عنف نجد أنفسنا في قلبه .. ؟

مابين الطبع الخشن والغضب العاجل بيننا.. اكثر من مسافة، وأعلى مرتبة من القنوط والأحباط..

ومن وجد حلولاً لمشكلاته ومعاناته وازماته.. بالعنف والكراهية؛ تناسى ان الاسلام الحنيف يخاطب الناس بقوله تعالى :

(ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها) و (إذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض قالوا، إنما نحن مصلحون، إلا أنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) .

والاصلاح هنا يبدأ من اصلاح البشر لذواتهم.. واذا ما صلحت النفوس وصلحت الارض وامتلأت بالخضرة والنماء والسلام.. ذلك ان:

(زوال الدنيا، اهون على الله من دم سفك بغير حق) و(ان الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على سواه) و(إن الرفق لايكون في شيء الا ذاته، ولا ينتزع من شيء إلا شأنه) و(بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا) كما ورد في احاديث الرسول الكريم ..

من هنا نتبين ان الاسلام الحنيف، لم يقم بسيف اعمى ولا حقد مكتوم ولا عقل ظلامي ولا كلمة سوء ..

الاسلام .. دين سلام ووئام للبشرية جمعاء.. دين رفق وجمال وبشائر تفتح لحياة مزهرة سعيدة، تجمع البشر على التآخي والمحبة من دون ضغائن واحقاد تقود الى العنف ..

و (لا اكراه في الدين، فقد تبين الرشد من الغي) كما جاء في القرآن الكريم.

هذا انموذج من بين نماذج وآيات واحاديث نبوية شريفة واقوال عديدة لأئمة اطهار.. جاء التاكيد فيها جميعاً.. على ان الاسلام خطاب مشرق ومتفائل واصلاحي ونقي .. للبشرية .

وهو على العكس تماماً من تلك الخطابات الدموية والوحشية والظلامية التي تطبع الارهاب واعماله التدميرية التي تتجسد في عصابات مسلحة اطلقت على نفسها دولة بأسم (داعش)، وانتقت من بين صفوفها (خليفة) لم يخلف للناس سوى الفساد والعبث في الارض بعد احيائها.. وما درى هؤلاء ان مفهوم (الرشد) في الاسلام يعني (الحرية من دون إكراه) و (عدم اكراه الناس على الايمان) .

ذلك ان الحرية.. مداها القناعة والمصداقية واتخاذ المواقف التي لاتلحق الضر بالآخرين.. كما ان الوصول الى الايمان بالشيء.. لايمكن ان يتم بالاكراه.. ومن كره لايؤمن، ومن خاف لا يقتنع، ومن ألزم الناس بأمر.. لايحصد الا ردود افعالهم، ورفضهم وتمردهم ..

من هنا .. نبصر الحياة بعيون بصيرة تعي وتدرك وتتوجه نحو الخير.. بعيداً عن صفحات الحقد والكراهية والعنف.. وقاكم الله منها جميعاً ..

(2)

العنف وتلويحة السلام

تختزن الذاكرة صورة مشرقة عن النبي داود .. وهو يعمل لبناء بيت المقدس فكان يتهدم كل ما كان يبنيه . فسأل ربه عن السبب، فأجاب الرب:

بيوت الله لاتقوم على ايدي من سفك الدماء .

فقال النبي داود : ألم يكن ذلك من اجلك يا ربي ؟

فأجاب الرب : ولكنهم عبادي .. وان جنحوا للسلم فأجنح لها .

هذه الصورة الحية ، يمكن ان تتحول الى حكمة اثيرة يراد منها ادانة اعمال العنف وقتل الابرياء .. ذلك ان مخلوقات الله ، جديرة بالحياة لا بالقتل ، لان القتل هنا معصية لأرادة الله اعتمدت الخلق والبقاء والتكاثر ، والخلق هنا بناء وعطاء واثمار وازدهار وحياة.. فكيف يمكن لقتلة خلق الله ان يتوجهوا لبناء بيوت ربهم وايديهم ملطخة بعباده ؟

ان السبيل الى الله لايتم بالاكراه والالزام ، وانما بالاقناع والحجة والبرهان ..

اما وان الله قد كرم الانسان ، وصار احب مخلوقاته اكثرهم نفعاً لعياله ، فأن هذا يتطلب احترام انسانية الانسان ، بوصفه الكائن الذي كرمه الخالق : " ولقد كرمنا الانسان .. " فكيف يتوجه القتلة

والمفسدين على قتل الانسان لاختلافه عنهم مذهبياً او دينياً او قومياً او فكرياً ...

وكيف يجرؤ هذا القاتل على اشهار ولائه ودفاعه وسعيه لبناء بيوت الله وهم يقتلون خلقه ؟

لو ان هذه الاسئلة وسواها ، وجهت الى هؤلاء الانتحاريين الارهابيين وكل الذين يمارسون اعمال العنف والجريمة والفساد ضد الاخرين ، لكنا قد نشرنا الوعي في حياة الكثرة من هؤلاء القتلة الذين يجهلون الممارسات المرضية الكئيبة والقاتلة التي تكشف عن نفوسهم التي تتنازعها النقمة والكأبة والمرض ، ولكان الاصلاح اجدى وانفع من ممارسات انتقامية كثيرة نشهدها اليوم .

بنا حاجة ملحة الى ان نعي وندرك طبيعة الادوار المنوطة بنا بوصفنا دعاة اصلاح وسلام ومستقبل سعيد .. ومالم نقرن الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، فأننا سنظل نعيش ظاهرة الانتقام من الاخر والنقمة عليه والحاق افدح الاضرار باولئك الذين يختلفون عنا في هذه المسألة او تلك .

ان من يتوجه الى الله سبحانه وتعالى بالتقوى والطاعة والزهد ، لابد ان يتعامل مع مخلوقات الله تعاملاً يحمل معه الألفة والمحبة والوئام .. لا اتباع سبل الرصد والانتقام وزرع الفتنة بين الناس.. ذلك ان الناس جميعاً هم ارادة الله .. فكيف نقتل هذه الارادة عن سابق نقمة وترصد ؟

الانسان بما هو نبت خير ... فلماذا تحوله الى نبت شر ..

والاله جميل ونقي ومضيء .. فلماذا نطفئ نوره بعتمة القتل والتدمير والفساد .. لماذا ؟

(3)

العنف ومايصاحبه

أعمال العنف التي طالت البلاد.. امتدت مع امتداد الفساد المالي الذي تم الكشف عنه، ومع امتداد جملة من الازمات الخدمية التي باتت معدومة في العراق.

العنف والفساد وحاجات الناس الملحة، كلها تسير على وفق خط واحد.. وهو امر واضح ومنظور لكل ذي بصيرة.. لكن من بيده مقاليد الامور من السياسيين، لم يعترف ولو لمرة واحدة بهذه الحقيقة!!

ولان بعض السياسيين الذين يشعلون الحرائق ويحولون البلاد الى رماد عبر تصريحاتهم التي لا تحمل مسؤولية وطنية ولا انسانية ولامصداقية؛ فأن الامور ستظل على ماهي عليه، ان لم تتردى اكثر..!

وكان الامل النظر الى الواقع بعيون موضوعية دقيقة.. ومعرفة ان اعمال العنف لها اسبابها وللفساد اسبابه وتفاقم الازمات له اسبابه كذلك..

ترى.. هل درسنا الاسباب، وتوجهنا لحلها حلاً حقيقياً وجذرياً، ام عمدنا الى حلول مؤقتة وتأجيلات مستمرة؛ وهو الامر الذي جعلنا

ندرك تماماً اننا موعودون بالفردوس الذي لن نقطف منه ورقة واحدة من زهرة ذابلة تعاني من الجفاف!

نحن بلا (نحن).. لاننا نقع تحت طائلة الموت مصادفة وننجو مصادفة، في حين نعتقل على وصفة ريبة، ونحيا على فقر بعد ان سلبنا الاثرياء حصتنا من معونة الشتاء، وليس بوسع خريج واحد، وطارق بيت الوطن، وحامل قيمه وكفاءته.. الا ان يبقى على لائحة انتظار ما لا يحل شدة جوع ولارخاء مستقبل..

لن يتوقف العنف بالامنيات، ولن تأخذ النزاهة حصتها من الوجود مادام الفساد قادراً على افساد مساحات اوسع من كل الجسور التي تعمرها نزاهة مقيدة اليدين.

ولن تحل الازمات بالوعود التي تأخذ بها الرياح كل مأخذ.

لن يكون هناك غير الحال الذي ابتلينا به.. فهل نستسلم وننتظر حلولاً وهمية لعقد مستعصية؟

كثرة منّا استسلموا لهذا الواقع المر، وقلة منّا عملوا على بذل جهودهم وفشلوا..

والاقل من القليل مازال يراهن نفسه على ان يغير مابه من اجل ما ستؤول اليه الامور من تغيير.. ولكن ما بالنفس يبقى مكتوماً.. وماهو مكتوم لايفعل شيئاً وما يغير الاشياء سوى اهلها والقائمون على امرها، ولا امر لمن هو مأمور!

من هنا.. لانتفاءل كثيراً بالامان، مالم يرافق الامن محاكمة المفسدين وتلبية حاجات المحتاجين واعانة الناس على شؤون بلواهم مما لحق بهم من ضّر.. لابنصف حلول وانما بحلول حاسمة وقرارات عادلة واداء فاعل..

(داعش) : التنوع الاجتماعي المتآخي في الموصل

الموصل.. مدينة للخوف والجهل والحذر

1

لم يكن سقوط مدينة الموصل في 9/ 6/ 2014 بأيدي التنظيم الارهابي التكفيري (داعش) طارئاً في حياتها، ذلك ان هذه المدينة سبق وأن شهدت جملة من الاستباحات والمذابح والهيمنة والاحتلال وصلت الى (21) مرة بدءاً من عام 1261 حتى الآن .

وفي مقدمة الاسباب التي تكمن وراء احتلالها مراراً، كونها مدينة عريقة بتجاربها وموقعها الجغرافي وتمتعها بأراضٍ زراعية شاسعة .

كما أن سكانها يجمعون بين المحافظة على أرثهم، الى جانب وعيهم الحضاري المنفتح على العالم، وهو الامر الذي جعل التنوع القومي والمذهبي والديني.. يشكل قوة في بناء وجودها التاريخي

والحضاري والاجتماعي.. وجعل من هذا التفاعل بين مكونات المجتمع الموصلي.. تفاعلاً إيجابياً منسجماً يجمع بين : العرب والكورد والتركمان والمسلمين والمسيحيين والايزيديين والصابئة والشبك والكاكائية.. مثلما جعل التداخل بين التحضر المدني للموصل مع القرى والارياف المحيطة بها، ونزوح كثرة من سكان هذه المناطق، بات يشكل عاملاً في مدى إنفتاح هذه المدينة على اقوام وعادات واديان ومناطق شتى .

ويطبع أهل الموصل أواصر القربى والمعرفة والتواصل، ومن طبعهم المسالم الذي يتعايش مع الآخرين بيسر وسهولة .

ومع ان طابع المحافظة على العادات والتقاليد الاجتماعية والتوجه الى الورع والتقوى.. يعد من سماتها البارزة؛ الا ان مناطق عديدة منها باتت تشهد متغيرات حضرية جديدة أبرزها : حي الجامعة والدواسة وشارع حلب.. وكان لافتتاح جامعة الموصل واستقبال الطلبة من مدن العراق كافة، فضلاً عن استقبال طلبة عرب.. قد أثر في انفتاحها وانتقالها الى مدينة متحضرة، تخرج عن عباءة التقاليد المتخلفة والعادات، التي لم تعد متلائمة مع متغيرات العصر.. هذا الواقع الحياتي الذي تتمير به هذه المدينة العريقة؛ بات الآن يواجه جملة من المحن بعد

سقوطها بأيدي قوة إرهابية مسلحة ومتخلفة وطارئة على المدينة اطلق عليها تنظيم (داعش) .

ومع ان البعض يرى ان (داعش) قد وجد له حاضنة في الموصل، يرى آخرون ان هذه الحاضنة غير موجودة اصلاً، وإنما كان عنصر الخوف وفوبيا الحذر الشديد الذي ابتليت به هذه المدينة على مدى سنوات طويلة، كان قد جعلها تستسلم للبطش وقوة السلاح الذي اعتمده تنظيم (داعش) في وقت كان اهل المدينة عزلاً الا من شرطة محلية في الجانب الايمن.. وقد قتل معظم المنتسبين للشرطة على مراحل مختلفة، وكان معظم منتسبي الشرطة المحلية يتخفون ويعملون سراً ويعمدون للحفاظ على أنفسهم من الاغتيالات التي كانت تطالهم يومياً.. فيما كان الجانب الايسرتسيطر عليه عناصر من الجيش الاتحادي القادم من مدن عراقية مختلفة.. وبين شرطة خائفة، وحذرة، ومرعوبة.. تخشى الظهور بملابسها الرسمية او حملها للسلاح، الا اثناء الحراسات، وبين قوة عسكرية لا تعرف طبيعة أهل المدينة ولا تتقن التعامل معهم، وانما تلزم الاهالي بأوامر يعدها سكان هذه المناطق التي شغلها الجيش بأنها صارمة ومهيمنة عليهم ومهينة لكرامتهم .. الى جانب الاعتقالات القسرية والعشوائية وغير المسؤولة التي مورست ضد كثرة من الابرياء من دون ضوابط قانونية .

ومع ان المجتمع الموصلي، مجتمع قائم على عوائل عرفت بزعامتها وسطوتها واحترامها والتزامها بقيمها، هناك مجتمع عشائري يلتم على نفسه، ويعمل على تأكيد حضوره على الرغم من توجه معظم ابناء الموصل الى الاستجابة للقوانين التي تحفظ لهم أمنهم وسلامتهم واستقرارهم ونشر العدالة بينهم.. مثلماتحفظ لهم نظام حياتهم .

كذلك نجد ان الموصليين، شديدو الحرص على التمسك بفضائل الدين الاسلامي الحنيف، مع حرصهم على احترام الاديان الاخرى التي تعيش بينهم بسلام كالمسيحية والايزيدية والمندائية.. ولم تشهد الموصل خصومات مذهبية ابداً، وظلت حسينيات ومراقد الشيعة محترمة ومصانة ومفتوحة.. شأنها شأن مساجد وجوامع ومراقد السنة.. ومثلها المعالم الدينية كالكنائس والمعابد التي يركن اليها اصحاب الديانات الاخرى .

ولم تشهد الموصل خصومات على المذهب او القومية او المناطقية.. وإنما ظل المجتمع الموصلي مجتمعاً يبحث عن حياة آمنة مستقرة ..

صحيح ان عدداً من ضباط الجيش السابق.. هم من ابناء هذه المدينة، وصحيح ان تنظيمات اسلامية ومتطرفة، واخرى تنتمي في تفكيرها الى السلطة السابقة.. موجودون في هذه المدينة؛ الا انهم لايشكلون قوة يعتد بها، او يخشى من وجودها، ذلك ان معظمها قد

انكفأ على نفسه، وبات يحرص على ذاته وعائلته من دون منغصات ..

وما يقال عن مساندة ودعم هؤلاء الضباط ومناصري السلطة السابقة، لتنظيم (داعش) الذي سقطت الموصل على ايدي عناصره؛ امر مبالغ فيه على الرغم من عدم نفيه او انكاره كلياً.. فيما يتجاوز حقيقة هذا الدعم عدد من (المحللين السياسيين) على الفضائيات ذلك ان الكثرة من الاسلاميين الموصليين لا ينتمون الى أي تنظيم سياسي، كما ان من كان ينتمي الى (حزب البعث) قد تخلى عنه بسبب الاحباط واليأس وفقدان الثقة بين اعضائه ..الى جانب تنظيم محدد للاخوان المسلمين ومن ثم تحوله الى حزب التحرير ثم الحزب الاسلامي وهو تنظيم مسالم لم يمارس العنف في خطابه الديني والسياسي .

اما الفئات السياسية اليسارية والديمقراطية، فقد غادر معظمهم الى المناطق المحيطة بمدينة الموصل مثل : القوش وقرة قوش وشقلاوة.. وذلك بسبب الاغتيالات التي طالت عدداً كبيراً منهم منذ سنوات تألقهم اواخر الخمسينات وأفول نجمهم بعد سلسلة الاعتقالات التي عملت على إستئصال وجودهم..

فيما ظل الكورد يشكلون حضوراً آمناً ومستقراً في الجانب الايسر من المدينة.. بينما وجدت جماعات تعاني من الجهل والفاقة والدونية الذاتية وتمارس السطو والعنف معاً وصفت بـ (الغجر) او (العريان) تغزو المدينة وتتحكم في إرادتها وهيمنتها على الكثير من المناطق المحيطة بأحياء الموصل القديمة.. وبات زحفها الى المدينة يشكل خطراً على طبيعة المجتمع الموصلي وجغرافيته .

هذا الواقع الموصلي بكل مايحمله من سلبيات وايجابيات، بات اليوم يواجه ضغوطاً قاسية بعد سقوط الموصل في 9/ 6/ 2014 .

وبعد ان شهدت الموصل اجراءات متسارعة قام بها تنظيم (داعش) برفع الحواجز من الازقة والشوارع، وتوزيع المياه بالخزانات المتنقلة، ومنع أي مظهر من مظاهر التسلح.. بدأ السكون يجتاح المدينة لبضعة ايام؛ الا ان هذا السكون بدأ يتحرك، ومن ثم يستاء ويغضب ويخشى ويعيش بحذر وترقب وقلق.. بعد ان كشف (داعش) عن هويته الحقيقية التي تكمن في فرض إرادته ونفوذ هذه الجماعات التكفيرية المسلحة، والعمل على بسط الاساليب القمعية والرجعية والسلفية التي تسعى وبشكل حثيث للعودة بالموصليين بل وبالعراق والعراقيين جميعاً الى قرون من التخلف والانحطاط والظلام.. والمجيء بنظام سلفي لايختلف عن (طالبان) في افغانستان، وهو ما لا يمكن

للموصليين الذين عرفوا بعقولهم التنويرية القبول به والعودة بهم الى زمن التخلف الذي تقاطع كلياً مع متغيرات العصر .

وكانت مؤشرات (داعش) واضحة للعيان، وقد تبينها الموصليون جيداً من خلال تدمير أضرحتهم ومقدساتهم ومعالم مدينتهم وسرقة إرثهم وتراثهم وآثارهم.. ومنع تدريس البنات، وحرمان العنصر التدريسي النسوي، وفصل المرأة عن الحياة ضمن مفهومهم (وقرن في بيوتكن)، والتوجه لتشريع قوانين جائرة تتعلق بالزواج، وفرض الجزية على من تبقى من المسيحيين والايزيديين .. وغسل ادمغة الاطفال والعاطلين والزامهم بالانتماء الى صفوفهم ومن ثم تدريبهم واعدادهم للأنتحار باحزمة ناسفة او عبوات مزروعة او مفخخات معدة .

وتم التدخل في شؤون اللباس والمظهر والسلوك الاجتماعي.. وتمادى هذ التنظيم (داعش) في اعماله القمعية التي لم يعرف الموصليون مثيلاً لها في حياتهم وبدأ غريباً عليهم، وتبين الموصليون ان عناصر هذا التنظيم طاريء ولا صلة له بأبناء الموصل الاصلاء الذين يعرفون بعضهم البعض الآخر، واكتشفوا لغات ولهجات هذه العناصر التي لم يسمعوها من قبل.. الامر الذي جعلهم يدركون جيداً ان هذه الفئة غريبة وطارئة تماماً عن الموصل والموصليين.. وزاد من دهشهم واستيائهم وخوفهم وحذرهم من اعلان (ابو بكر البغدادي) نفسه

خليفة على المدينة، وما كان لأهلها القدرة على التنفس رافضين.. فالموت يطال من يعترض، والقصاص بالجلد لمن يخالف، اوامر الخليفة جائرة ولاقدرة لأحد على صده بوصفه حاملاً للسلاح، فيما المجتمع بكامله ليس اعزلاً فحسب وإنما يتوسل هواءه وقوت يومه وامنه.. لئلا ينطفيء في أية لحظة ..

من هنا نتبين ان الموصل باتت تواجه جملة من المحن التي يصعب حلها، فأهلها بين مشرد فاقد لسكنه وجمع عائلته، وبين مسحوق عاطل عن تأمين سلامته ورغيف خبزه ، وبين الجميع تتوزع قوى ظلامية تكفيرية تفرض نفوذها بقوة السلاح على مدينته ترتدي السواد الحزين فيما تخشى المدينة من زمن اسود قد يطول أمده ويمتد الى زمن غير معروف.. تسود فيه ادوات القمع والدمار، ويهيمن على وجود اهله الخوف والموت الزؤام والجهل والحذر الذي لايستقر على أمن ولا عيش ولا حياة .

وعلى وفق هذا الحاضر التدميري الذي تشهد وقائعه الموصل اليوم، لابد من البحث عن سبل موضوعية دقيقة لتحريرها من القوى المسلحة التي يتقدمها (داعش) وبعض العناصر التي تعود بأنتمائها الى الجيش والحزب السابق.. من دون ان نقلل او نبالغ في عدة وعدد هذه العناصر ..

وامام الحكومة بوصفها راعية امن واستقرار البلاد، العمل وبشكل استراتيجي وتكتيكي معا لعودة الموصل الى احضان العراق، وذلك عن طريق اكتساب الخبرات الوطنية من الجيش السابق، والقوى الوطنية والعشائرية وكسب ثقة الموصليين بايلائهم قدراً من احترام انتمائهم الوطني وارثهم الموصلي واعانتهم في محنتهم للخروج من الكارثة التي حلّت بهم ..



فشلت الحكومة المحلية في الموصل، في أولى مهامها، فضلاً عن فشلها في تفاصيل الواجبات الاخرى المناطة بها .

فشلت في بسط الأمن والاستقرار على مدى السنوات العشر الماضية، وهذا الفشل المعتق، هو الذي أوجد ارضية خصبة لئن تبسط قوى الارهاب نفوذها بأخذ الاتاوات من المواطنين من دون اتخاذ أي اجراء رادع ضد هذه القوى مما جعل نفوذها يتسع ويقوى ومن ثم يتمكن من الاعلان عن نفسه من خلال التعصب الظلامي الراديكالي المتمثل بتنظيم (داعش) الأرهابي .

وتمادت هذه العصابات المتطرفة في غلوها، وتوجهت الى اهانة ابناء الموصل بهدم وسرقة وتدمير المعالم الدينية والآثارية التي تميز مدينة

الموصل وتعطيها خصوصية نادرة تمتد الى اكثر من (7000) آلاف سنة .

وعمدت هذه العناصر الارهابية الى فرض عقوبات واغتصاب اموال المواطنين تحت اساليب شتى.. منها: عدم ارتداء الخمار، او حلق اللحى، او ارتداء ملابس رجالية او نسائية لاتتلاءم مع مارسمه هذا التنظيم المعتم على الناس والتدخل في ابسط خصوصياتهم .

وتوجه (الداعشيون) الى الغاء كلية : الصيدلة والفنون واللغات، الأمر الذي أدى الى نزوح مئات الاطباء والصيادلة والطلبة من المدينة، الى جانب نزوح آلاف العوائل خشية من بطش يعد له هذا النفر التدميري .

وفي الوقت الذي غابت فيه الحكومة المحلية، وهربت من المدينة؛ راحت تبحث عن ضحايا ابرياء، تدعوهم لمقاومة (داعش) وطردهم من الموصل، ليتسنى لأعضاء هذه الحكومة المهزومة، العودة لممارسة مهامها الوظيفية العليا .

ومثل هذا التوجه، لايخفى على الموصليين الذين عرفوا ان التخلي عن المدينة في أصعب وأهم وأعتى محنة واجهتها، يعني ان هذه الحكومة المحلية لايشغلها سوى العودة الى كراسيها لا غير ...

من هنا يصبح توجه الحكومة المركزية ومعها كل القوى التنويرية الوطنية والموصلية منها على وجه الخصوص.. هي من يمتلك زمام المبادرة والنضال من اجل طرد هذه العناصر التي عاثت في الأرض فسادا، وشردت آلاف العوائل البريئة من البيئة التي كانت تتجذر فيها على مر الأزمنة .

ومع علمنا ان الامر ليس سهلاً، ولايمكن الحصول على نتائجه بالسرعة المرجوة؛ الا ان جملة خطوات من شأنها ان تعجل وتحقق المستقبل المنشود لمدينة الموصل، وذلك على وفق الطرق والأساليب الآتية :

1- توضيح حقيقة ان هذا التنظيم التكفيري يكفر المسلمين باستثناء المنتمين اليهم مع ان القران الكريم اورد (105) آيات تحذر العباد من دخول النار و (77) آية تشير الى جهنم و لم تكفر مسلماً، فيما جاءت اربع آيات فقط تشير الى مشركي مكة تحديداً .

2- كسب ثقة المواطن الموصلي، عن طريق زرع وعي متفائل وصادق وصميمي معه، والتعاطف مع ما اصابه من بلاء ومحن، وتقديم المعونة المادية والمعنوية التي من شأنها جعل كل مواطن موصلي يحمل زمام المبادرة في التخلص من هذا الوباء والكارثة التي الحقها

تنظيم (داعش) به، وتعبئة الداخل، واعداده للأنتفاض على الواقع الفاسد الذي لحق بكل موصلي .

3- ضبط حدود الموصل والحيلولة دون دخول عناصر داعش من سوريا او تركيا او السعوية او المدن العراقية الاخرى .. والتنسيق مع القوات الكردية المسلحة (البيشمركة) لتنفيذ هذا الهدف .

4- العمل المخابراتي والاستخباراتي والامني – الداخلي والخارجي – مهم جدا في تحقيق ما نصبو اليه، شرط أن يتحرى الحقيقة والمصداقية والامانة والدقة، وان يكون المنتمون الى هذه الأجهزة ممن يتميزون بالكفاءة والمصداقية .

5- المعرفة المسبقة لتفاصيل اسلحة وافراد العدو (داعش) قبل الاقدام على أي عمل من شأنه الحاق الخسائر البشرية والمادية .

6- ايجاد الارضية والوقت المناسب، والانتباه الى الجبهة الداخلية في بقية مدن العراق،بحيث تكون آمنة ومستقرة.. لئلا تفتح جبهات اخرى.. وبالتالي يصعب ايجاد حلول لها.. مما يسبب كوارث وخسائر جديدة .

7- اعادة بناء الجيش العراقي الوطني العابر للطائفية والاثنية .. لا كما جرى من قبل وصُرِفَ عليه اكثر من (50) ملياردولار .. وحقق فشلاً في أول معركة له مع داعش !

وعلى وفق هذه الرؤى التي تنشد المساهمة – ولو بجزء يسير – يمكن ان تفتح ابواباً لحلول مرجوة للخلاص من هذه القوى التدميرية الدخيلة على العراق والعراقيين والتي ألحقت افدح الخسائر بالارواح والأرث الحضاري العراقي.. والذي – إذا ما استمر – فأنه سيمتد ليشعل نار الفتنة بين العراقيين وتحويل البلاد الى رماد ..

كما أن وجود وعي بالمواطنة المتآخية والمتراصة، والقوى المسلحة المؤمنة والمخلصة في اداء دورها ومسؤوليتها.. هي الاساس الفاعل في إنقاذ ليس الموصل حسب، وإنما كل شبر من العراق.. من آثام (داعش) وكل قوى الارهاب .

أخيراً .. ادعو والتمس مخلصاً من اجهزة الاعلام واتحاد الادباء ونقابتي الصحفيين والفنانين ووزارة الثقافة وحقوق الانسان والتربية والتعليم العالي والجوامع والمساجد والحسينيات والكنائس ومنظمات المجتمع المدني والاحزاب.. الى تغيير خطابها التقليدي والانتقال الى خطابات تثقيفية تعبوية تفضح القوى الارهابية وتتوجه لبناء مجتمع سلمي متآخٍ مزدهر ..

ظاهرة العنف.. كيف نواجهها مسرحيا؟

من المعروف جيدا.. ان المسرح خطاب سلام، فما الذي يجمعه بخطاب العنف والارهاب والتدمير والفوضى ؟ نعم .. المسرح خطاب سلام ونظام وعقل ومتعة راقية كذلك، فيما العنف قائم على انتفاء لغة الحوار مع الآخر، والعمل على الخلاص منه خلاصا تاما وبشتى السبل . من هنا نجد ومنذ فجر البشرية نجد ان قتل قابيل لأخيه هابيل، كان قائما على عجز وغياب جسور التفاهم بينهما، وفي ظل هذا الغياب حضر العنف مجسدا بالقتل، ذلك ان العجز عن ارادة الحوار وعلى وفق السبل الانسانية السلمية، لا تقابله إلا إدارة تتجرد من إنسانيتها، إرادة قمعية تتخذ من الادوات الجارحة والحادة والمسيئة للأنسان، لكي تقطع كل تواصل وتفاعل وتفاهم وتلاقح وانسجام ومحبة.

إن المسرح .. فن المحبة والحياة والبناء والحوار والمناقشة العقلانية المتأنية، فيما العنف.. اداة غليظة لأغتيال الحياة بكل ما تحمله من عطاء واجتهاد وفرح .

إنه اداة العتمة التي تكمن في دواخلها الكراهية والحقد وتصفية الآخر، بعد العجز عن اصلاح الجفاء والخلاف، وتحويلها الى مجرد اختلاف في الرؤى وليس تقاطعاً كلياً معهما .

ان قوة المسرح.. حكمته وحجته السلمية، وقناعته الكلية، وموقفه الواضح من الإنسان والعالم المحيط به .

فيما العنف، استخدام مادي ضاغط وخالٍ من الشرعية القانونية المنظمة.. ويؤدي اعتماده الى حالة من الفوضى والعدوانية والعدائية في سعي شرير الى الاساءة للأفراد والجماعات لأي نظام قانوني شرعي قائم.. و((لأن كان الرابح هذا الطرف او ذاك- كما يقول حنه أرندت في كتابه (في العنف) ترجمة ابراهيم العريس- ؛فإن الصراع سيسفر عن نهاية الاثنين)) ذلك ان هذه ((لعبة لايقوم هدفها (العقلاني) في إحراز النصر؛ بل في ردع الطرف الآخر، أما سباق التسلح الذي لم يعد يرمي الى الاعداد للحرب؛ فان مبرره الوحيد اليوم، إنما يقوم في الواقع على المزيد من الردع ليكون خير ضامن للسلام)) .

ولا يكفي هذا التوجه المسلح لوحده لتحقيق وفرض إرادة السلام، وإنما لابد له أن يكون مرافقاً ومنسجماً وعلى صلة وشيجة ومتينة من الخطاب السلمي، الذي يعد فن المسرح رافداً مهماً من روافده .

ذلك ان مسرحية (العادلون) لألبير كامو مثلاً، واجهت العنف الثوري بالطفولة، فالثورة لاتجرؤ على قتل براءة الطفولة .

ومسرحية (مكبث) شكسبير أويونسكو، لا تتقصد أوترصد إلا الشخصية القاتلة بعينها لتعد محور الجريمة وبؤرتها التي لابد أن تستأصل .

ومسرحية (ماراصاد) أو (حديث من فيتنام) لبيتر فايس، لايراد منهما إلا الدفاع السلبي عن العناصر الآثمة التي تتقاطع كلياً مع مصالح الشعوب، وصولاً الى إدانة قوى العنف .

ان ما يسمى بـ (العنف الثوري) بات يشهد تحولات جادة وجديدة امام العالم الذي بات يتجه نحو البناء الديمقراطي السلمي.. لذلك لم تعد هناك ثورات مثل الثورة الفرنسية او الثورة البلشفية في روسيا، بوصفهما من الثورات التي استخدمت العنف الدموي الذي راح يصفي بعضه البعض الآخر، حتى اصبح جملة كوارث حلت بالشعبين الفرنسي والروسي .

من هنا أصبحت (مساندة الشعب هي التي تؤمن السلطة لمؤسسات أي بلد من البلدان، وهذه المساندة ليست سوى استمرارية للتوافق الذي اوجد القوانين القائمة، في وضعية تقوم فيها بالحكم

حكومة تمثيلية، من المفروض ان يكون الشعب هو الذي يحكم اولئك الذين يديرون شؤونه) على حد قول حنه ارندت.

وفن المسرح، من شأنه ان يرقى بهذا المعطى الفكري ويتعامل معه درامياً، وصولاً الى الحجة المنطقية والبرهان المتين، على العكس من اساليب العنف التي تقتل الواقع في الصميم وتحوله الى رماد فكيف يمكن للرماد ان يتحول الى عنصر جديد ينقلنا الى المستقبل الذي يزعم الارهابيون ان العنف هو السبيل الوحيد للتغيير ؟

صحيح ان للعنف اسباب قد تبدو لأول وهلة مشروعة ومنطقية ومقبولة بوصفها منطوقاً للحياة اليومية كالعوامل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية؛ الا ان هذا المنطوق تنتفي اهميته عندما يمارس القتل الذي يعد اضمحلالاً كلياً لتلك العوامل.

إن تفشي البطالة والامية وتدهور الاقتصاد وتفكك العلاقات الاجتماعية، وفقدان الثقة بالآخربسبب الفساد المستشري على نطاق واسع، وغياب الدور الفاعل للمثقفين، والصراعات السياسية التشهيرية والفضائحية؛ لايمكن حلها بأساليب تتجاوز على القوانين والانظمة، ولا باستخدام المفخخات والاسلحة الكاتمة، وإعمام الفوضى في البلاد..؛ وإنما يمكن حلها بالعقول التي ترجح ارادة السلام على ارادة العنف، والحوار الحضاري ليكون بديلاً عن قمع الآخر وتصفية وجوده..

وفن المسرح، بما يحمله العاملون فيه من عقول تصطفي السلام والوئام والحوار والمحبة وتنشد المتعة المصفاة، يمكن له ان يحبب الحياة لمشاهديه، مثلما يخاطبهم بارادة الثقافات المتعددة التي تتفق على مفهموم واحد يستمد وجوده من السلام للوصول الى قناعات تؤدي بالنتيجة الى اصلاح الاخطاء وتغيير الرديء والمتخلف الذي يتقاطع مع رفاهية البشر وعيشهم الرغيد، بعيداً عن أي عمل يتخذ العنف سبيلاً للحل، بوصفه عملاً منحرفاً، وطارئاً على الطبيعة البشرية.. ذلك ان البشرية، لايمكن ان تحيا بعزلة افرادها ومجتمعاتها، وشعوبها..

ان الانسان بطبيعته المعهودة.. يحمل طبيعة سلمية، لاتحيا الا بالسلام مع الآخرين، وأي خروج على هذا الواقع المادي، يعد انحرافاً لابد من معالجته بشتى السبل النفسية والتربوية والعلمية التي تؤدي الى متغيرات مكتسبة بالعقول الراجحة والقناعات السديدة.. التي تتجاوز الاحتدام العنيف والانتقال به الى تفاعل إنساني منشود.. بوصفه تفاعلاً يعتمد الرقة والرفق لا الاكراه والتخويف والقهر والقلق والرهبة وعدم الاستقرار النفسي واتخاذ الماضي الصديء لمعالجة حاضر متعثر.. فالصدأ لايفلح في معالجة العثرات، والظلام لايفلح في المجيء بالشمس..

إن الصدأ والظلام مفهومان خارج المألوف واللامعقول، إنهما لايؤديان الا الى الفتن والحروب والاقتتال والعدوان.. وكلها اساليب تلغي استقلالية الافراد ولا تحترم قناعاتهم وتطلعاتهم.. وهو ما يرفضه

الانسان السليم والقويم والنقي، وبالتالي لايستجيب له الابداع ومنه المسرح الذي يعتمد التنسيق والانسجام ومن ضمنها ما يتعلق باستتباب الامن ومعالجة شؤون البطالة والفساد والصراعات الفئوية على الهويات ..

نعم.. قد تستخدم الدولة القوة (بل هي لاتتخلى عن استخدام القوة، لكنها تستعملها لضمان عدم المساس بها وحماية مواطنيها وثرواتهم وليس لفرض نظام مثالي على الجميع) كما يقول تزفتيان تودوروف في كتابه (اللانظام العالمي الجديد) ترجمة محمد ميلاد .

إن (الدولة تحتكر العنف حتى تضمن أمن الافراد) كما يقول الدكتور علي الوردي في كتابه (طبيعة المجتمع العراقي) .

الا أن تودوروف والوردي معاً، كان لابد ان يوضحا مسألة في غاية الاهمية، وهي ان الدولة لاتلجأ الى استخدام القوة والعنف، الا في مواجهتها لقوة وعنف يقابلها.. وفي حالة عجزها عن فرض إرادة السلم والتلويح بغصن الزيتون، فأنها تضطر بالنتيجة الى مواجهة القوة بقوة امضى، ذلك ان معالجة الحديد لايستوي الا بنار تقوى على صلابة الحديد والتعامل مع ليونته وعجزه وانكسار قوته من خلال سلطة القانون وفرض ارادته بالقوة لصالح المجتمع .

وإذا كان لفن المسرح من دور في هذا الجانب، فانه سيكون فاعلاً ومؤثراً في توضيح هذه الظاهرة درامياً وباساليب تنطلق من خلال

الحواس والعقل معاً.. فالمرء لايستقيم إلا بما يدفع به وجدانه من احساس ورجاحه عقل ومن نباهة ووعي .

هذا هو المطلوب اعتماده في مسرحنا راهناً .

الوعي / التأمل الحكيم

الحكمة ولحظة الغضب

نختلف مع اخوتنا واصدقائنا.. ونختلف مع انفسنا في لحظة غضب تعصف بنا، فلا نجدها في حالة توازن.. وقد تجعل هذه اللحظة الغاضبة ان ندفع الثمن غالياً طوال اعمارنا.

يحصل هذا كثيراً، ذلك اننا لسنا في كل الظروف يمكن ان نتصرف بطبع هادىء وحلول عقلانية واعصاب باردة.

لكن المسألة غير المقبولة.. ان نشرك الاخرين فيما يحصل بيننا من اختلافات قد تتحول احياناً الى خلافات وتقاطعات وتجر علينا عداء لم نكن نقصده ولانهدف اليه ابداً.

هذه المسألة تحتاج الى قدر من التأني والمراجعة.. ذلك ان الخلافات التي تجري في البيت الواحد، لابد ان تكون داخل اسواره، لا

ان تخرج الى الشارع والى تكتلات وشهود والى النظر لمن لا يكون في صفي فهو عدوي!

اورد هذه المقدمة وانا بصدد الحديث عن سلسلة مواقف شهدت وقائعها هذا الاسبوع.

خلاف بين الابن وابيه، والحبيب وحبيبته، وزميل العمل مع زميله، وعدد من اعضاء اتحاد الادباء مع زملائهم في الاتحاد نفسه..

ازاء ما حدث.. هناك سؤال مركزي يقول:

هل يحق للاب التنديد بسلوك ابنه امام الملأ، وهل يحمل الابن الجفاء لابيه.

وهل يندد الحبيب بشرف من كان يكن لها كل الحب، وان يتحول كرمه في عينها الى بخل في المشاعر والعطاء؟

هل يرفض الزميل تحية الصباح في غرفة عمل تجمع زميلين، وهل يصح لمن يملكون فردوس الكلمات الكيد لزملائهم خارج اتحادهم العتيد، اتحاد الادباء، وتتحول الرؤى الى انقلابات وتغيرات وجفاء وانعكاسات تصل حد القطيعة!؟

لايصح ان نوسع حجم الخلافات بكل هذه السرعة، ونجعل العالم المحيط بنا كتلاً من العداء والرفض الذي يصل حد السيف القاطع.

الوعي الانساني يقول بالاسباب والنتائج معاً، لا ان يعتمد النتائج بلا اسباب، فهذا ظلم وغبن للآخر، ولا موضوعية في حسم الاختلافات التي تتحول الى خلافات..

فنحن لا نكن لبعضنا مثل هذا الغضب كله، وامامنا مهمة استعادة ما مضى وكيف كان الواحد منّا يكن للاخر كل الود والاحترام والتقدير، لكن لحظة الغضب قد تتجاسر علينا وتضيق علينا نفوسنا وتجعلنا نتخذ مواقف عاجلة تسيء الينا بوصفنا نعتمد الحكمة في لحظة الغضب، لا ان يكون هذا الغضب هو السلطة التي تسلبنا حكمتنا التي نحترمها فينا ويحترمها الاخر لدينا..

من هذا المنطلق.. نحتاج الى ان نتقدم خطوة في النظر الى الاختلاف بوصفه حالة انسانية طبيعية..

اما الخلافات، فلا بد من رفضها رفضاً تاماً، حتى نبقي على جسور المحبة.. خضراء، خضراء.

عين العقل

سهل . سهل جداً ان تخاصم وتكسب الخصوم والجهلاء والناقمين والذين لايملكون الحجة والبرهان في اقناع الاخرين .. من هنا لا يجدون امامهم الا سبيلاً واحداً هو الخصومة وعداء الاخر والتخلص منه بطرق شتى.

في حين نجد العقلاء من الناس يفكرون الف مرة ، ويحاولون الف مرة، ويتريثون ويحتكمون الى العقل والمنطق في قبول الاخر بدلاً من خسارته وتحويله الى عدو .

ان المسافة بين الجهلاء والعقلاء، مسافة شاسعة ، يمكن ان نقطعها بالتأني والفهم والدراية، مثلما يمكن ان نقطعها على عجل وهي عين الحقد والغضب والجفاء .

بنا حاجة الى المسافة التي تصل الى حل عقدنا ومشكلاتنا وخلافاتنا.. هذه المسافة التي تتشكل لدى الانسان الذي فينا .. الانسان الذي يعقل ويتريث ويحتكم الى البرهان والمواجهة الصريحة، بعيداً عن الانفعالات الحادة ، والاقوال غير المتأنية .

لقد صدرت في الاونة الاخيرة، وفي ظل ظروف في غاية القلق والتوتر تصريحات من اطراف عديدة بالويل والثبور وتشتم على عجالة وردود افعال سريعة.. ولولا الهدوء الذي تمتعت به لاضعفاً منها، وانما لادراكها ان الغضب يمكن ان يقود الى غضب اشد وقعاً ، وبالتالي الفتنة بيننا .. بحيث لاتبقي بعدئذ على مجرد ردود الافعال، شأنها ان تزهق ارواحاً بريئة.. وفي حين يمكن امتصاص حالات التوتر التي تصاعدت في الايام الاخيرة بعد العمليات الاجرامية كل مدن العراق مما يؤشر الى دراية الناس جيداً الى ما ستؤول اليه الامور، اذا لم ننتبه الى الطرق السيئة التي يريد فيها اعداؤنا، ان نتوجه اليها من التردي والتدمير والفناء ..

ان ارادة صاحية تسود بيننا، هي التي تؤمن لنا سبيل العيش الامن المستقر والارادة الخيرة هي التي تسهم مساهمة فعالة في اسقاط كل المحاولات التي تريد بنا السوء ..

ومادمنا نملك هذه الحقيقة، ونعرف ابعادها ونتائجها، فان اعداء شعبنا وبلادنا واختراق صفوفنا وجرنا الى خصومات لاتبقي ولا تذر.. لابد ان تكون قيد البصر والبصيرة .

العقل أولاً وأبداً

العقل ارادة الخالق في خلقه ،والحضور في إشعاعه

من هنا بات من حق الانسان ان يفكر بالغد ويرسم للمستقبل .

كما انه من حق الشعوب ان تقرر مصيرها وان تتحدى هيمنة المحتل الجديد .

من حق الدول ان ترى القوانين والنظم التي تتلاءم وطبيعة المجتمع الذي تقوده .

هذه الحقوق جميعاً ..تحتاج الى عقول نيّرة ،والى ارادة حرة،والى موقف ثابت وارادة واعية ..الا ان مثل هذه الحقوق ،لاتلغي حقوقاً اخرى مماثلة لها ..ومتى ما انسجم الانسان مع عقله،استوعب عقل سواه ،وتعامل معه من منطلق مضيء ومن لاحدود ومن افق مفتوح متسع الارجاء .

الماضي يقر بالعقل ،والحاضر له جذور في ذلك الماضي ..اما المستقبل ..فلا يمكن ان يولد من فراغ ،او يقوم على غياب ،او يشكل ملامح وهمية لعالم خفي ..فلا شيء يوجد من لاشيء.. العقل في حالة تواصل وتراكم خبرات ومعارف ورؤى..هي التي تشكل عالم الغد ..ذلك ان هذا الغد لاترسمه قوى سحرية قادمة من فضاءات مجهولة ،ولاتعد له كائنات لم يعرفها كوكبنا من قبل.

الغد ترسمه عقول من بيننا ،عقول تتشوف الآتي الأفضلوالاشراق الاكثر بهاء للبشرية ..على عكس تلك العقول التي لايشغلها سوى دمار الاكثرية ،حتى تنعم الاقلية بالخيرات والثروات ..

ان الارض تتسع للجميع ،والفرصة متاحة للجميع ،والمستقبل ملك للجميع ،لذلك نجد مهمة كل العقول العمل من أجل سلام دائم ،ومن أجل غد لا تخطط العقول على هدمه وتبديد طاقات ابنائه من أجل مطامع وصهر مجتمعات في مجتمع امبراطوري احادي ..

ان مستقبلاً كهذا ،له وجه معتم ،محفوف بالمخاطر والآثام والجرائم ..ومجتمع قمعي تسوده الانانية وتحكم اناسه بإرادة لا تعرف سوى الهيمنة والاحتواء والآلية .

ترى ..هل نجد عقول هذا الجيل ،وما يمكن ان يخطط ويفكر ويدبر ويرى بعمق ..آفاق المستقبل الذي ننشده لنا ولأبنائنا ،وللبشرية جمعاء .

ان العقول ما وجدت الا لكي تبني مجتمعات سعيدة مدركة ،مجتمعات منشغلة كلياً بانتاج كل ما من شأنه زيادة اكبر قدر ممكن من السعادة والهناء والراحة للانسان ..حتى اذا وجد كل انسان مثل هذه الراحة،استطاع ان يفكر وينتج ويرسم افقاً جديداً لمستقبل ينير الدروب للجميع ..حتى يعمل الجميع ..لسعادة الجميع..

أما اولئك الذين يعتمدون الفعل لا العقل ،فأنهم يعطلون معطى انساني متميز أمدنا به الخالق لنستخدمه لا لنعطله ونهمله ونركنه في منطقه ساكنة .

إن العقل إرادة البشر في الوصول الى الحقائق المثلى والحلول الانجح وبغير استخدام العقل ،سنبقى في حال لانحسد عليها ،وفي واقع نرثي فيه أنفسنا ونعطل انسانيتنا .

اسلوب التغيير المنشود

تستعيد شعوب المنطقة حالياً ،النهج الذي اتخذه الزعيم الهندي الراحل غاندي الداعي الى مبدأ اللاعنف والتسامح ونبذ التعصب ووحدة الارادة الشعبية ..حتى وصفه الشاعر طاغور بـ (المهاتما) وتعني (الروح العظيمة المتواضعة) .

غاندي الذي تخرج في جامعة بريطانية ..أدرك الطبيعة العنصرية للبيض عندما توجه للعمل في جنوب افريقيا وهي تشبه تعاملة قومه مع الهنود السيخ وهو الامر الذي جعله يعمل على مقاومة الاستعمار البريطاني بعد ان درس سياسته في استغلال ثروات بلاده .

وتوجه الى استغلال الملابس الانكليزية بالملابس الشعبية الهندية الرخيصة (الفوجراتي) وحاك ملابس بدولاب يدوي ..وعاد الى جمع

الملح من نهر غانج الهندي والامتناع عن شراء الملح الانكليزي وقاد تظاهرات عام 1919 التي حولتها القوات البريطانية مذبحة ضد المتظاهرين .

غاندي ..لم يعلم الهنود و لم يدربهم و لم يحثهم على حمل السلاح ولا اللعب به منذ الطفولة ولا التباهي به في الرجولة ،و لم يكن يرتضي ان يتعصب قومه ضد سواهم من الاقوام وإن مات بثلاث رصاصات من المتعصب الآثم (ناثورام جودسيه) ذلك ان هذا التعصب الذي كان يقف على الضد منه طوال حياته ،برهن على غلاظته وجريمته وآثامه التي وثقها بموته الدرامي .

هذا الغاندي النبيل ..بنا حاجة ماسه إليه اليوم لأسباب عدة.. أهمها ان جرائم القتل والفساد التي أخذت منا الشيء الكثير، وسلبتنا الارواح والثروات وحولت بلادنا الى بلد متخلف على الاصعدة كافة .

لم تعد أساليب الانقلاب واصوات الرصاص ولا الحرائق ولا اعمال النهب والسلب مجدية للتغيير.. وإنما هناك ضرورة ملحة الى مزيد من الاساليب العقلانية السليمة والاحتجاجات الغاضبة والاعلام العقلاني الموضوعي في الكشف عن الطغاة والمفسدين والمستغلين والاسياد الذين عاثوا في الارض فساداً وموتاً ونهباً.

لم تعد بنا حاجة الى عمال العنف والتعصب والتخريب والطائفية.. وإنما تعنينا المباديء السامية التي دعا اليها وطني هندي اسمه غاندي رفض اضطهاد البيض لسمرته الداكنة ،مثلما رفض اضطهاد ابناء جلدته للسيخ بوصفهم بشراً لهم الحق باعتناق ما يشاؤون من المذهب واللغة والفكر ..

وكذا الحال في العراق،نحن معنيون بالتسامح والوئام واللاعنف مع من نختلف معهم في الرأي..وليس من سبيل للتغيير أفضل من التوجه السلمي البناء والكشف عن اولئك الذين سلبوا الناس حقوقهم وثرواتهم وعملوا على تميزهم ونشر الفتنة بينهم .

نعم ..التغيير مطلوب مادام (الثابت) لايستجيب لارادة الحق والانصاف ،وانما يمضي باتجاه القتل والفساد والاعتقال ..شرط ان يتجه هذا التغيير الى اسلوب يختلف كلياً عن ماقبله ،واضعاً التغيير السلمي نصب العيون والعقول والاحاسيس الراقية البناءة.

آخيل .. ليس هناك مستحيل

من الاخطاء الفادحة والمتكررة لدى عدد من الحكام والمسؤولين، ان التغيير لايمكن ان يطالهم ،وان وجودهم اقوى من كل التدابير التي يرسمها خصومهم .

ولنا في الاسطورة الاغريقية (كعب أخيل) مثلاً ..

فهذا المحارب (أخيل) كان قد اكتسب مناعة وقدرة خارقة على مواجهة الاخطار وصار جسده عصياً ومنيعاً على الاختراق بأي سلاح ، وذلك بعد ان كانت أمه قد وضعته وهو طفل في نهر ستايكس السحري ،وغمر ماء النهر كل جسمه الا كعب قدمه حيث امسكته امه لئلا يأخذ به تيار النهر ..لكن (أخيل) قتل بسهم من أحد المحاربين اثناء حرب طروادة ..ولم يكن ذلك صدفة وإنما كان بوشاية احد العارفين بامره – كما تقول الاسطورة – حيث اشار الى نقطة الضعف لدى (أخيل) والتي أودت به للموت .

واذ نورد هذه الاسطورة المعروفة والمتداولة والتي صارت مثلاً على كل لسان ؛نتبين انه لايوجد امر مستحيل وأزلي ،وليست هناك حصانة أبدية ،ولا قوة يستحيل قهرها ،ولا ثقة كلية ونهائية بأية حماية او حصانة او قوة او أسلحة إبادة ..إذا ما حصلت ساعة التغيير ..فهناك بكل تأكيد ثمة فرصة للحل وسبل شتى للتغيير عندما يحل الأوان وتأتي الضرورة الملجئة لوضع حد للأخطاء التي بدأت تتراكم وتتفاقم وتتعقد من دون إيجاد سبل لوضع حّد لما نحن عليه من مصائب وازمات ومؤامرات وتدمير بتنا نشهده كل يوم ..

وما دام الوضع قد تفاقم سوءاً ،والمنافسة على المنافع والمناصب هي الأساس في هذا السوء كله ؛فليس امام العدالة الانسانية الا ان تتحرك على وفق ما تمتلكه من حق وحقوق مهضومة ومعلومة وليست خافية على أحد .. وليس من نقمة على أحد ولا ثأر من أحد ..سيولد هذا التغيير المرتقب ؛وإنما هي الضرورة الملجئة التي تتطليها في استعادة الامور الى الطبيعة التي يفترض ان تكون عليها وتثبت مواقعها ..لا أن تمضي الضلالة في غيها والعدم الى منتهاه والخطأ الى أقصاه ..فهذا أمر مجافٍ لطبيعة الاشياء وعهد الناس بها ..

لذلك تستمد الحقيقة ضرورتها من حجمها وبراهينها وادلتها التي لم يعد بالناس المزيد من الصبر عليها والعيش في كنفها .

ان للناس مديات محدودة على الاحتمال وعلى الصمت ..الا ان هذا المدى له أوقاته التي لاتمتد الى ما لانهاية ..وليس لقدرات (آخيل)

من القدرة على مواجهة الخطر المحدق به وبمن يماثله ممن يملكون القدرة على خداع أنفسهم ..أنهم ناجون من الغرق ذلك ان الفيضان آت ..وكل ماهو آت يحمل معه ارادة التغيير الذي يملك ارادته الناس الذين ذاقوا واحتملوا الظلم لأمد بات يثقل عليهم ،ويأخذ منهم أعز ابنائهم وعرق جباههم ..ويقتل احساسهم بالحياة المثقلة بالهموم والتعب..

نعم .. (آخيل) يحمل معه كل القوة التي يحملها نقطة ضعفه كذلك.. ونقاط الضعف ظلمة الشعوب كثيرة والوصول اليها والنفاذ من خلالها ليس مستحيلاً أبداً ..

هذا ما ينبغي ان يدركه العقلاء الذين أخذت الاخطاء عقولهم ..ولا بد لهم أن يصحوا ويعودوا .. وهو ما ننبه اليه ليس الا ..

ترشيد من لايقبل بالرشاد !

في مسيرة حياتنا.. مررنا بأوقات عصيبة، حروب وحصارات وفقر وبطالة ومرض.. وهذه الاحوال، إقتضت منا ان تحتسب حياتنا على شد البطون وعدم البطر على بقايا خبز جاف أو تمرة ساقطة من نخلة ذاقت لهيب الحروب والظمأ .

ومع أننا خير أمة انتجت الخيرات، وخير أمة اختزنت الحضارات.. الا أننا بقينا أمة ليس بوسعها إنتاج سلتها الغذائية بنفسها !

ولأن الامم الناجحة والسعيدة والمطمئنة على حاضرها ومستقبلها، أمم تعمل وتفكر.. فأنها أمم تنتج، ومن ينتج إنساناً راشداً، يعقل جيداً حاجاته الأساسية، من دون إنتظار أحد ليقدمها إليه لقمة سائغة، جاهزة للتناول باسترخاء.. هي الامم المتقدمة والتي يسودها السلام والاستقرار .

الامم المتفوقة، والشعوب العظيمة؛ تكون دائما يقظة.. يعرف كل فرد فيها حقوقه وواجباته، وماهو ملك له، وماهو ملك وحق للآخر الذي يقاسمه هذا الوطن ..

غير أننا دائما.. إعتدنا أن نأخذ من الآخر، من دون ان نعطيه ذرة نخالة، ولا نصغي إلا بما لنا فيه نفع.. كما لو أن الواحد يحمل أذن جمل ليس بوسعها إلا سماع صفير الصحراء !

هذا الواقع المرير الذي اعتدناه في حياتنا اليومية؛ ليس من السهولة تجاوزه والانصراف نحو شأن آخر.. ندعو إليه باخلاص عميق وتوجه سليم.. وما النداءات التي تدعو الى ترشيد الاستهلاك، إلا حقيقة يفترض أن تكون قائمة وموجودة ومعمول بها أصلاً.. ذلك ان الترشيد ليس شحة ولا بخلاً ولا تقتيراً كما يحسب الكثيرون ..

إن الترشيد نظام حياة وعمل ودراية ونباهة.. وهو على الضد تماماً من ذلك الهدر المطلق الذي جملناه عن غفلة وجهل وعلى أنه (كرم) و (بذخ) عربي قصدناه وسرنا عليه.. إستثناء من كل الخصال الحميدة التي نعرفها عن أجدادنا.. ورأينا في (حاتم الطائي) إنموذجنا العربي السخي الذي ينام جوعاً ليطعم ضيوفه ..

نعم.. الأثرة مطلوبة، وإغاثة الجائع من الخصال الأنسانية المحمودة.. لكن مقابل ذلك.. هناك حق لأنفسنا علينا، وعدل بيننا وبين من نغشهم في أزماتهم وشؤون دنياهم .

من هذا المنطلق، يمكن أن ندرك بأن إطفاء شمعة في دائرة حال المغادرة، لايختلف عن الضرورة التي يتطلبها الأمر ونحن نغادر بيوتنا ..

هذا ترشيد منظم، وسلوك قويم يمكن أن يمتد الى كل الأمور من دون استثناء، ولو تيسرت لنا القدرة على جمع ما هدرناه من أشياء صغيرة، لأصبح بوسعنا الاستغناء عن أشياء كبيرة جاء حصادها من النظام الدقيق الذي إتبعنا خطواته بحس مسؤول .

وهذا الأمر لايمكن أن يلقى صداه ومن ثم نحصد نتائجه المرتقبة؛ ما لم يكن هناك من يصغي للأرشاد، ومن يرشد نفسه أولاً، ومن يرى أن الرشد والرشاد والترشيد.. كلها مفردات سديدة تؤتي أكلها، إذا ما إستخدمنا حواسنا وعقولنا بشكل مفتوح على إستقبال حسن وثقة متبادلة وادراك عميق للأشياء والظروف الساخنة المحيطة بكل واحد منا .

هل نحن متخاصمون حقاً ؟

بعد ان تم تسويق مفهومي المصالحة والتسامح على مدى السنوات التسع المنصرمة ها نحن نشهد ضجة اعلامية وسياسية تدعو الى احياء هذين المفهومين.. بعد ان كانت مسوغات العنف مرتبطة بالاحتلال .. وهاهو المحتل قد رحل .

ومثل هذا التداول المستمر في الصحافة والاعلام بشأن المصالحة والتسامح لايحتاج الى مستشارين ولا وزارة ولا تصريحات وانما يتطلب منطقاً واضحاً ومنطقيا فاعلاً .

ان الاحزاب والكتل السياسية غير متفقة وغير متصالحة مع بعضها البعض حتى ان الفئة الواحدة لم تستو على اتفاق صميمي موثوق .

ولا توجد قضية واحدة ثم الاتفاق على حلها مالم تكن هناك قضية اخرى توازيها مطروحة من قبل فئة اخرى..

حتى يتم التوازن ويتم الحل هذه ليست سياسة ولا ديمقراطية ولا عدلا ولامبادئ ..

من هنا يؤسس الخلل وجوده ويتجذر في الرؤوس والنفوس .. ولو تيسرت صحوة حقيقية في الاذهان والنفوس حقاً لادركنا جيداً ان الحلول ميسورة والعقد يمكن ان تحل ..

العراقيون وماكانوا يوماً يبيتون الانتقام لبعضهم وانما يعدون لمد الجسور بينهم واذا وجد ثمة خلاف كانت العقول الحكيمة والرصينة والمحترمة ترجح الحلول السليمة بالحوار والتفاهم والمناقشة وصولاً الى اتفاقات انسانية بناءة ..

وتحولت هذه القيم الحكيمة والعقول الراجحة الى الدولة التي صارت قوانينها ملزمة للجميع من دون استثناء او تمييز بين مواطن عراقي وآخر اذن المصالحة ليست ظاهرة راسخة في الاذهان ابداً و لم تكن قيم التسامح اذلالاً للآخر ولا الانتقاص من شأنه سبيلاً من سبل بسط النفوذ القوي على الضعيف ولا المنتصر على الخاسر فمثل هذا السلوك يعد في مجتمعات القيم الفضيلة سلوكا مهيناً لا يقبله الا من تردت قيمه وساءت سمعته..

لذلك نجد ان العلاقات الاجتماعية بين العراقيين علاقات متينة وراسخة و لم يفسدها الا السياسة والسياسيون ..

ولو كان للسياسة نظام وللسياسيين مبادئ حقيقية راسخة لتم على وفق النظام والمبادئ والقيم حل هذه الاشكالات والعقد التي تم صنعها وافتعالها بقصد زرع الفتن بين ابناء البلد الواحد والعائلة الواحدة والمواطن الواحد .. بهدف الابقاء على تخلفهم والنيل منهم ..

العراقيون متصالحون ومتسامحون مع بعضهم البعض والسياسيون هم وحدهم الذين لايجيدون ولايتقنون ولايقيمون اعتباراً لا للمصالحة ولا للتسامح فمتى ينتبه اولو الامر الى هذه الحقيقة ..؟

وقت آخر للفراغ !

هل يحتاج الواحد منا الى أوقات لمزيد من الفراغ والتعويض عن ساعات العمل المضيء ؟

ألا يكفينا من الاسبوع يومان.. وما ملكنا من أيام الاعياد والمناسبات والطقوس وعطل الصيف الجاف والمطر المدرار وقطع الطرق التي تأخذ على وفقها اجازات مفتوحة واخرى تتمارض وثالثة.. مشاغل خاصة وطارئة ومفخخة ومساعدة لاتحتسب من رصيد عملنا ..

أليست بنا حاجة الى مراجعة الاوقات المهدورة في دوائر الدولة كافة ونحن نقضيها في الفطور والغذاء وما بينهما من مأكل ومشرب وتدخين واحاديث منافقة وزيارات وهواتف مع الداخل والخارج.. ؟

كل هذا الهدر من الزمن، ألا يخجلنا ونحن نتقاضى عنه رواتب سخية وأجوراً إضافية ومكافآت تشجيعية وكتب شكر وتقدير على أداء واجبات مطلوبة تقع في قلب مهامنا الوطنية .. ؟

ان الواحد منا يقضي سنوات طويلة في الدراسة، ويتوجه للتخصص.. ويهدر المال والزمن للحصول على شهادات معرفية وخبرات يراد استثمارها في العمل ..

حتى اذا توفر هذا العمل بعد عناء مضنٍ؛ إنقطعت العلاقة بين كل السنوات السابقة، والتوجه للبدء بـ (عمل) جديد لايخرج عن اطار البطالة المقنعة التي نتقاضى عنها اجوراً باهضة لانستحق منها ورقة ساقطة في خريف يتقن مهماته بشكل أفضل مما نحن فيه من فراغ.. لابداية له ولا نهاية .

ولم افاجأ أبداً عندما ظهر علينا د.مظهر محمد صالح- مستشار رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية - وهو يتحدث في برنامج (اقتصادنا) على قناة (العراقية) يوم 22/ 11/ 2014 ، مشيراً الى ان العراق يعمل في دوائره (4) ملايين موظف وموظفة ومعدل الوقت الذي يقضيه كل موظف في عمله لايتجاوز (17) دقيقة !

أقول.. لم أفاجأ، لأن العين ترى والبصيرة مفتوحة تحتكم الى النتائج .

فما من معاملة في دائرة يمكن انجازها في اسبوع او شهر او ما ملكنا من اوقات مفتوحة على الفراغ .

وما من أحد أدرك أبداً ان ساعات العمل مقدسة، لابد أن تحترم.. ذلك أننا ندفع عنها أموالاً طائلة من دون نتائج مثمرة، نريد ان نعرف قطافها على مدى شهور وسنوات .

المهم.. والأهم أن يشغل الموظف نفسه بكيفية قضاء يومه الوظيفي بلا عمل، ذلك أن عمله مقترن بالدوام الرسمي.. فيما لانجد دواماً إلا لدوام الأحوال، ولا رسماً الا رسم توقيعنا على راتب سخي!

واذا بقينا كذلك.. لامسؤول يلزم، ولا موظف يحترم زمن العمل، ولا حساب ولا مقاضاة على ما هدر من أزمنة؛ فأن الاحوال ستمضي نحو اوحال لاقبل لنا للخلاص منها.. ومن ثم نتحول الى كائنات لا حول لها ولا قوة على إطعام نفسها وتنفس الهواء الذي يتوسل صدق عملها ..

فهل نمضي على وفق هذا العهد الذي يعهده لنا المستقبل المأمون.. ما دمنا نبحث عن اوقات اخرى للفراغ.. أم نبحث عن صراط مستقيم، نعرف آفاقه جيداً ونعمل على وفقه بصدق ومسؤولية ووطنية وأخلاقية ؟

فـن البقـــاء !

هل صار البقاء فناً وابتكاراً وجهداً ابداعياً يمكن أن يحتذى ؟

رسالة من صديق فارقته قبل ثلاثة عقود ،وتقطعت بها سبل الحياة، حتى وجدته في الامارات العربية مرة ،ومن ثم جاءت رسالته من كندا بعد طول الانتظار الذي أمضيته وانا ابحث عنه .

هذا الصديق الحميم ،لابد ان يكون قد حفر إسمه في ذاكرة جيله والاجيال اللاحقة ،فله من الكتب أكثر من عشرين وفي الابحاث والنصوص الابداعية والنقدية المئات وله في الاخراج المسرحي جوانب مشرقة ..

هذا الغائب الحاضر هو د.فاورق اوهان الذي يتنفس الحياة ..وهو في كامل البهاء أمام نفسه وأصدقائه .

اوهان فاجأني وأنا المغرق في هموم الحياة والموت المزمن برسالة طويلة ،يقول فيها أنه مصاب بمرض السرطان ،وان اطباؤه الذين يعالجونه ويسهرون على راحته يقولون أنهم قد تعلموا منه فناً جديداً أطلقوا عليه (فن البقاء) .

يقول أوهان :"انا متفائل وصامد مثل جبل ،هنا يشيدون بقدرتي على المقاومة ،بل أنهم يطلبون مني نصح وتعليم الآخرين فن البقاء "

رئيس المركز الطبي ..عالم يجلس معي عند معاينتي وينسى نفسه وهو يحدثني ،ونتجاوز ،وجراح يسالني ما آخر عمل أكتبه.. وهم يعرفون من هو المريض وما خلفيته ،ويتابعونني حتى على الهاتف وأنا استمد قوتي من أصدقائي ومنهم أنت .."

وفي الوقت الذي أوجعني مصاب صديقي الأثير ،مثلما أوجعني تفاؤله بصبري وأنا الذي لم يعد للصبر طاقة على إحتمال صبري؛ وجدتني أجد في قدرة صديقي الحميم اوهان حضوراً خاطب شغاف قلبي الذي كنت اتوسله حتى يعينني على احتمال اوجاع هذا النقي العذب حتى أشد أزره ،فإذا هو في غربته يجد من وعي ودراية اطبائه واصدقائه سبيلاً الى معانقة الاوجاع ومواجهة صعاب المرض والقربة معاً .

أكبرت في الناس الذين يحيطون صديقي بهذا الاهتمام الانساني الذي وجدت فيه دفئاً بات نادراً في الواقع المحيط بنا هنا في وطن وجدنا فيه أنفسنا نعاني من جراح عميقة وأذى يعم ،كما الهواء والوباء معاً ..من دون أن يسأل القلب عن شغافه والابن عن رحم أمه والأخ عن صلب أخيه ..والاب عن جذوره في عائلته ..

سعيد أن أجد صديقي محاطاً بهذا الجمع من الأزهار الانسية التي يفوح عطر مودتها لتجعل الحياة أبهى والعالم أنقى..

نعم .. د.فاروق أوهان ،ماهمه أن يشركني في أوجاعه أبداً وإنما أراد أن يدفع بأتجاهي شحنة من تفاؤل بت أفتقده مع الكثير من العراقيين الذين لم تعد بهم قدرة على احتمال المزيد من الأذى فأذا بالتفاؤل يأتي من أوهان الذي ما وهن ولا هان له أن يستسلم للمرض والغربة ..

من هنا كانت فاتحة جديدة للتفاؤل ..تأتي من هذا الابهى ومن البهاء فاروق أوهان ..

الحكمة اليابانية .. لماذا نتجاهلها

في العام 1853 وصل الى شواطيء اليابان، قائد سفن امريكية يدعى: ماثيوبيري، وقدم لليابانيين رسالة من القيادة الامريكية تدعو اليابان الى (الانفتاح والسماح للأساطيل الغربية بالمجيء الى موانئها والمتاجرة معها) واعطى القبطان فرصة لقيادة اليابان تمتد سنة كاملة لأتخاذ القرار .

اليابانيون –القادة والشعب– فكروا معاً في السبيل الذي ينقذ بلادهم من الأذى، ومن مواجهة محتملة، ليسوا مؤهلين لخوضها.. لذلك وضعوا امام انفسهم سؤالاً محدداً يقول :(ما الذي جعل امريكا تتقدم علينا، ولماذا لانتعلم من تفوقهم.. ونتفوق عليهم..؟) .

القرويون البعيدون عن التحضر كانوا أول من اعترض، وعدوا المسألة خيانة وتراجعاً، وانفتاحاً يلغي الأرث، ويجعل البلاد في قبضة المحتل.. وعمدوا الى اغتيال 1850 يابانياً وقعوا على اتفاقية (الانفتاح

والتبادل التجاري مع الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا) حاول القرويون اغتيال القبطان الامريكي، لكنه افلت منهم، وتوجهوا الى اغتيال من اطلق عليهم صفة (خونة البلاد).. ووقعت الحرب الأهلية.. لكن الامر كان قد حسم لصالح (السياسة المستنيرة) ..

ودأب اليابانيون على العمل لمواجهة المحتل سلمياً.. ذلك من خلال الاعتماد على انفسهم وطاقاتهم وخبراتهم وكفاءة مواطنيهم.. حتى اصبح شرف الياباني يقاس بمدى اخلاص المرء ونزاهته في العمل وحفاظه على أمن وسلامة وصناعة بلاده.

وفي مدة زمنية قصيرة، تمكنت اليابان من الانتقال الى المرحلة الصناعية، بعد تخليها عن المرحلة الاقطاعية التي كانت تعيشها .

وراح الياباني ينظر الى الغرب.. نظرة عقلانية بعيدة عن التعصب او رفض كل ما يحمله الامريكيون من رؤى وافكار تتعلق بالدين والتراث والعقيدة.. بل عمد اليابانيون الى المعرفة والفكر والفلسفة الغربية.. وهذا التوجه جعلهم يترجمون امهات الكتب الغربية.. الامر الذي جعلهم يعرفون جيداً طبيعة البلد الذي يحتل بلادهم، مثلما اكتسبوا افضل ما عند ذاك البلد واضافوه الى تجربة بلادهم.. وراحت اليابان تتقدم سريعاً في ميادين عدة في حين فشلت روسيا والصين ومصر.. عندما مرت بالتجربة نفسها ..

وعندما اصبحت اليابان اغنى بلد في العالم بعد امريكا وبعد ان تمكنت من تحويل ضعفها الى قوة وجهلها الى انتاج عقلاني مثمر وضعت امريكا في حرج.. سواء في اتخاذ اليابان سوقاً رائجاً او استثمار موارد اليابان الطبيعية.. لذلك راحت القواعد الامريكية تنصرف شيئاً فشيئاً.. في وقت كانت اليابان ترسخ تقاليد عمل مثمر وبناء محكم للبلاد واستقلال كامل الأنجاز والفاعلية .

اليابان.. تجربة شعب لم يكن راضياً ابداً على احتلال البلاد، لكنه تمكن بالعقل الراجح والرؤية المعمقة والوقادة المبتكرة من تحرير البلاد وجعلها تتجاوز محتليها.. فهل نتمثل التجربة .. نحن، نحن في هذا العراق الذي احرقه الجهلة منا والذين لايقلون خطراً وتأثيراً سلبياً من الاستعمار الاجنبي ما داموا يستخدمون اساليب التخلف والجهل والصراعات المصلحية التي لايحصد أحد من الاطراف شيئاً منها باستثناء الشر ؟!

الأصولية والعقل

يتم التداول إعلامياً بمفردة (الأصولية) على أنها الأصل أو الجذر البكر أو النص على وفق ماهو عليه، لا على وفق شرحه وتأويله وتفسيره والاجتهاد على تقديم المعاني التي تكمن في داخله .

(الأصولية) بهذا الفهم، أصولية لا أصل لها ولا جذر.. إنها مقطوعة الصلة بالانسان بوصفه عقلاً، وليس جماداً.. وهذا هو الاساس في سلبياتها وتخلفها.. وهو السبب عينه في رفضها رفضاً قاطعاً من كل شعوب الأرض.. وهو بالنتيجة سيؤدي الى مقتلها وانهاء وجودها .

إن (الأصولية) التي تنادي بها جماعات متخلفة، تعاني من كسل عقلي، من عقم في فهم الرأي الآخر، إنها لا تحاور أحداً سوى نفسها، وترفض الاصغاء الى ماهو خارج عن قناعاتها.. ومن ثم تظل

في البقعة ذاتها.. ساكنة، جامدة، ترفض التفكير بشيء إسمه الحركة والتغيير .

إن ما تفكر به (الأصولية) لايخرج عن إطار الفكر الاسطوري الأزلي، ليكون ثابتاً، راسخاً أبدياً لايمكن للفكر العلمي وللوعي التنويري الاقتراب منه أو مناقشته او اقامة حوار او صلة به.. في حين نجد أن العقل العلمي، عقل مجتهد، لاسلطان لأحد عليه سوى العلم والمعرفة التي تضيف وتؤشر وتتفاعل ومن ثم تغير على وفق قناعات وبراهين وأدلة وانتباه ..

أما (الأصولية) فتبدأ خطابها، بخطأ الاسئلة التي تطرحها.. الاسئلة التي جاءت عبر سنوات معتقة جامدة.. فهل يعقل او يتم تصور ان يحيا الأنسان بوعي مضت عليه العديد من الأزمنة من دون ان تغادره أو تعمل على إضافة او تعديل او اختيار بديل عنه؟

إن الاجابات السديدة، السليمة، والمنطقية.. لايمكن الوصول اليها الا من خلال اسئلة صحيحة، هادفة، فعالة، منتجة للأجابات اللاحقة.. هذا هو منطق العلم والمعرفة .

أما طريقة التلقين والحفظ التي تتبعها (الأصولية)، فأنها لا تنتج عقلاً جدلياً، عقلاً متجدداً .

إن احترام الماضي لاتعني تقديه وتحنيطه وتجميده ورفض الألتفات الى سواه ..

ان احترام اعلام الفكر والحضارة امثال : (الخوارزمي، جابر بن حيان، الكندي، ابن سينا، الرازي، ابن الهيثم، البيروني، الغزالي، ابن رشد، ابن خلدون، ابن البيطار.. وسواهم) لايعني (عبادة) كل واحد منهم، وإنما إتخاده حافزاً للعمل والتطوير والاجتهاد.. وهذا ما عملت عليه الدول المتحضرة التي بتنا نستورد منها كل صغيرة وكبيرة، بدلاً من البدء المبكر لمعطياتنا الفكرية والحضارية.. والسبب في ذلك يعود الى أن عدداً من الجماعات ما زالت تصر على (الأصولية) وتقديس الماضي وعدم المساس به أو إقامة حوار علمي معه.. وهذا معناه البقاء في المنطقة المتخلفة ذاتها بعيداً عن الرؤى المفتوحة الأفق .

من هذا المنطلق تبدأ الدعوة الوطنية الى الخروج من مآزق كثيرة قيدنا أنفسنا بها كتقديس الماضي واعتباره نبعاً نقياً أبدياً لايمكن للزمن أن يتجاوزه، وتلقين طلبتنا به، بدلاً من زرع الثقة بهم لمناقشة كل معلومة.. وصولاً الى قناعات جديدة.. تظل في جدتها، الى أن ترد معلومة لاحقة تأخذ مكانها وتكتسب الهوية الجديدة..

هذا هو قانون الحياة.. فكراً مجتهداً، وإرادة إنسانية لا تتعامل مع كل الأشياء الا من خلال العقل.. بوصفه الهوية الحقيقية التي تعبر عن وجوده .

الخراب الناعم !

تختزن الذاكرة موقفاً مشرفاً للرئيس الفرنسي الراحل (ديغول)، يمكن أن يتخذ انموذجاً حياً لما نشهده في العراق اليوم .

هذه الصورة تشير الى أن ديغول أُبلغ عن موظف مرموق يعمل في مكتبه تحوم حوله الظنون التي تضعه في موقع يتعاون فيه مع دولة أجنبية، من دون أن يمسك أحد بدليل يؤكد هذا التعاون .

ديغول.. أخذ الوشاية على محمل الجد وإستدعى الموظف وسأله عن علاقته مع الأجنبي ومتى بدأت هذه العلاقة.. الموظف أنكر كل التهم الموجهة اليه، لكنه في نهاية الأمر أخبر ديغول بأن مهمته التي تخدم مصلحة الدولة الاجنبية والتي يتقاضى عنها الأجور تنحصر في دفعه لأختيار أسوأ وأجهل الموظفين لأشغال مواقع لاتقع في إختصاصهم .

وبذلك يكون هذا الموظف العميل قد ألحق أفدح الأضرار بمؤسسات بلاده، وقدم خدمة لأعداء بلاده وتقاضى الثمن .

هذا الحدث نفسه يجري في العراق، وبشكل واسع، لكن أصحابه والدعاة اليه والقائمين عليه والدافعين باتجاهه، يقومون بأداء هذا العمل ويقدمون خدمة ممتازة لأعداء بلادهم.. وباختلاف واحد نيابة عن ذلك الموظف الفرنسي العميل، حيث يخدم ذاك العميل الفرنسي ويقدم عمالته بأجور باهضة، فيما يقدم عدد من المسؤولين، (شخصيات) من الجهلة والمفسدين والطارئين.. لأداء أعمال ومهمات ولجان يجهلون طبيعة عملها.. ويقدمونها الى الاجنبي بوصفها خدمة مجانية !!

من هذه النقطة يبدأ الفشل الذي يرافق أعمال عدد من الوزارات والدوائر والمؤسسات الرسمية، حتى يصبح الأصلاح شبه مستحيل، ويصبح التطوير عصياً.. فيما يلازم الفشل كل إجراء يتم اتخاذه .

وللأسف الشديد نجد أن هذا الانموذج الفاشل يتكرر باتجاه خدمة مجانية تقدم للأجنبي وترضية للبعض على حساب العراق والعراقيين .

وسيظل هذا الفشل يلحق أفدح الأضرار، ومن ثم يصبح على كل مسؤول متخصص معالجة الاخطاء المتراكة، وذلك نتيجة لثقل

القرارات الفاشلة التي تم إتخاذها على عجل ومن دون دراية بتفاصيل العمل .

وما لم يتم الانتباه الى هذه الظاهرة التي تبسط نفوذها وحضورها بشكل بارز على مجمل الحياة الراهنة التي نعيشها اليوم فأننا سنواجه الكثير من العقبات.. واذا لم نفعل مايحول دون تفاقم هذه الظاهرة، فأننا سنظل في حالة من يصنع الفشل بنفسه ويقدمه على طبق من ذهب الى الأجنبي الذي يترقب الفرصة للهيمنة على البلاد والحصول على قدر من الغنيمة التي تقدم اليه مجاناً .

وإذا كانت نباهة ديغول قد كشفت عن اسلوب جديد من العمالة الاجنبية المحيطة به، فان الواقع الذي يعيشه عدد كبير ممن يتحدثون عن الوطنية من خلال وسائل الاعلام من شأنه أن يكشف عن تناغم بين هؤلاء الساسة والامتياز الذي يتم تحقيقه خلال السنوات المنصرمة.. فيما (المستقبل) مفتوح على مزيد من هذه (الصناعة السلبية) التي تعد ظاهرة بارزة في العراق وتلحقه بالفشل الذريع، مثلما يقترن بالعهد السابق ويقدمه، الى عهد يفترض أن يقدم الكثير من الامتيازات الجادة والمفيدة بالعراق والعراقيين.. لكن ما حصل ويحصل هو العكس..!

ترى ماذا نحن فاعلون بصناعة الفشل هذه.. وكيف يعالج أمرها الوطنيون الغيارى على الازدهار والارتقاء بحياة شعوبهم ؟

الأمر مرهون بقوى العدل والوطنية والاخلاص.. لوطنهم وشعبهم.. باختيارهم الكفاءات المتميزة والنزيهة والمخلصة.. ذلك أن الوطن لايزدهر إلا بوجودهم ..

صرايف الزعيم

ما كان مشهد بيوت القصب التي كانت تمر أمام بصري عند دخول بغداد قادماً من الموصل .. مشهداً عادياً.

كنت اقارن بين بيت سقفه من حجر وجص ولا تقوى كل الأمطار على تمرير قطرة الى داخله شتاءً او شمس لاهبة صيفاً على الرغم من مرور اعوام طويلة على بنائه.. وبيوت من قش وقصب.

كان السؤال يخجلني وانا الصبي ثم الشاب.. وظل ذات السؤال يحيرني، حتى لأحس أنني من عائلة بطرة، والناس الذين يعيشون تحت سقوف القش والطين والقصب كائنات قدت من الفقر صيفاً وشتاءً.. وليس بوسعها ان تحمي نفسها من مطر مدرار وصيف لاهب .

احتبس السؤال في صدري.. ثم تقدمني نحو بصيرة إريد ان اعرفها.. وتجرأت وسألت شيخوخة أبي: لماذا يعيش الناس هنا في

بيوت من طين وقصب، فيما فيما نعيش نحن في بيوت من حجر وجص ؟

إبتسم أبي، كأنما كان سؤالي قد جعله يحس بارتياح.. قال :

– كنت اريد ان تسألني عن هذا الفرق.. حتى تتبين ان المساواة ضرورة لابد ان نعمل من أجل نشرها في حياة الناس .

وفي التفاصيل حدثني عن (سكان الصرايف) القادمون من الريف بسبب جور الأقطاع واستغلاله للفلاحين.. وبالكاد بنوا بأنفسهم ما ترى ..

ولاحقاً صار يحدثني بتفاصيل أغنى واعمق واكثر دلالة.. وحين اختفت تلك (الصرايف) عن نظري في زيارات لاحقة لبغداد.. سألت أبي عنها .. فأجاب :

– ذاك مافعله الزعيم عبد الكريم قاسم، عندما بدأ ببناء مدينة اطلق عليها اسم (الثورة) ومدينة أخرى اسمها (الشعلة) ليسكن فيها فقراء الناس (سكان الصرايف) وسواهم من المعدمين ..

وعندما سألته: وماذا فعل الاقطاعيون عندما تحولت الكثرة من الفلاحين الى سكان العاصمة ؟

قال : بادر الزعيم الى شل حركة الاقطاع واصدر قانون الاصلاح الزراعي وصار على وفق هذا القانون الذي وزع الاراضي على

الفلاحين وصار بمقدور الفلاح زراعة أرض يملكها ويجني ثمارها.. فيما ترك مساحة محدودة للاقطاعيين.. لهم حق استثمارها .

وعندما كبرت صرت، ادرك جيداً ان ذاك الزعيم الذي نشأ من عائلة فقيرة، لم ينسى جذره الاجتماعي الفقير، و لم تكن تلك النياشين العسكرية التي يحملها ولا الموقع الاول الذي شغله لقيادة البلاد.. يجعله ينصرف لنفسه وذويه والمحيطين به والمباركين لوجوده – صدقاً او نفاقاً – وإنما ظل أميناً للوطن الذي ينتمي اليه وللناس الذين احس بمعاناتهم وبات يعمل من خلال موقعه على تحسين ظروفهم ونقلهم من حال القهر والظلم والظلام.. الى بشر من حقهم ان يكون الوطن ملكاً لهم وليس لفئة معينة تستغلهم ..

وعندما نتأمل ببصيرة منصفة ما أنجزه الزعيم.. ندرك جيداً ان البلاد لايصلحها الا هكذا نماذج وطنية اصيلة، تضع مصلحة الوطن فوق كل الاعتبارات.. عندئذ ستظل شمس العراق بهية ونقية متألقة .

القراءة / وعي وابداع

في وزارة الثقافة / 2015 عام للقراءة:

القاريء والقراءة

اعلن وزير الثقافة الاستاذ فرياد رواندزي بأن الوزارة تتوجه حاليا الى ان يكون عام 2015 عاماً للقراءة وعزت الأسباب الى ان للقراءة دور مهم في بناء الأنسان والمجتمع في وقت تراجعت فيه القراءة خلال السنوات الماضية .

وهنا مراجعة لهذا التوجه :

إذا كانت أغراض التأليف على وفق ماورد في كتاب (كشف الظنون) لحاجي خليفة يقوم على: (اختراع جديد، إتمام ناقص، شرح غامض، إختصار طويل، جمع متفرق، ترتيب مختلط، تصحيح خطأ)؛

فأن هذه الأغراض مجتمعة يقابلها ثلاثة أنواع لأنماط القراءة حسب: تودورف وهي: (قراءة شرح، قراءة اسقاط، قراءة شاعرية) .

القراءة الأولى علمية تعليمية، والقراءة الثانية إسقاط الذات بكل ما تحمله من عقد وأوهام على النص، والقراءة الثالثة تحمل وظيفة شاعرية.. على وفق ما اورده د.عبد الله الغذامي في كتابه (الموقف من الحداثة).

ومابين التأليف والقراءة؛ نتبين الحقيقة التي كشف عنها تقرير التنمية الثقافية لمؤسسة الفكر العربي والتي تشير الى أن ((معدلات قراءة الفرد الأوربي 200 ساعة سنوياً، بينما هي لدى الفرد العربي 6 دقائق سنوياً، وفيما نجد القاري الأمريكي يقرأ 11 كتاباً سنوياً، والبريطاني 7 كتب سنوياً؛ نجد القارىء العربي لايقرأ اكثر من ربع صفحة)) .

ويعزى أسباب العزوف عن القراءة الى جملة أسباب أهمها :

الوفرة في استخدام مواقع التواصل الاجتماعي الحديثة كبديل للقراءة الورقية، وإنشغال الانسان راهناً في عمله، وعدم وجود فراغ يتيح له اشغال هذا الفراغ بالقراءة، وتردي الأوضاع المعيشية وارتفاع نسبة الفقر على نطاق واسع وافتقاد المواطن العربي عامة والعراقي على وجه الخصوص الى الاستقرار والشعور بالأمان والاطمئنان في حياته

اليومية..؛ كلها اسباب لاتشجع على القراءة، ولا تحفز على اختيار القراءة سبيلاً للوصول الى وعي يمكنه من تطوير حياته والاطمئنان على مستقبله؛ بل هو على العكس من ذلك، يجد المتلقي حرجاً أمام الجهل المتفشي في اوساط واسعة من المجتمع الذي يواجه ليس الامية التعليمية حسب وإنما الأمية السائدة في السلوك الاجتماعي والمواقف السليمة ..

وعلى وفق ماورد، يصبح التوجه الى تحفيز افراد المجتمع على القراءة يتطلب جملة استعدادات لابد من وضعها في اولويات العمل لأنجاح هذا التوجه المسؤول ..

وفي مقدمة هذه الأولويات توفير بيئة آمنة مستقرة، تتظافر فيها إرادة الدولة في بسط نفوذها لتحقيق الأمن والاستقرار، وحث الخطى من قبل وزارة التربية على مكافحة الأمية التي باتت متفشية على نطاق واسع، والعمل على إلزامية التعليم بجدية عالية ودعم المكتبات المدرسية وتطوير الدراسات العليا في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بحيث يكون لرسائل الماجستير والدكتوراه.. حضور فاعل في نشر الوعي داخل المجتمع ..

من جهة أخرى.. يتطلب ربط المكتبات العامة في بغداد والمحافظات بوزارة الثقافة بدلاً من إدارة المحافظات التي أهملت هذه المكتبات كلياً .

هذا مايتعلق بتنسيق وزارة الثقافة مع الوزارات والدوائر المعنية التي لها تماس بالمشروع الثقافي الذي دعت اليه وزارة الثقافة والمتعلق بعام القراءة .

اما في وزارة الثقافة، فأن الأمور المناطة بها، فهي كثيرة ومتشعبة وتتطلب العمل بجدية عالية وذلك عن طريق:

تشكيل لجنة عليا من المتخصصين في إدامة وتعزيز الخطاب الثقافي والإبداعي والمعرفي بين المؤسسات الثقافية المنتجة للكتاب والمطبوعات وتوزيعها عموماً والمتلقي/ المسُتقبِل/ القاريء ..

ولتنفيذ ودعدم هذه اللجنة يتطلب الآتي :

التوجه الى اصدار كتب الجيب الزهيدة الثمن، الغنية المعلومة، الرصينة الخطاب، الممتعة والمفيدة.. وذلك عن طريق تكليف نخبة من الأساتذة في مختلف الأختصاصات في كتابة موضوعات منتجة واساسية وشاغلة لما يتطلبه الوضع الراهن، ويحتاج اليه المتلقي في حياته اليومية.. ليكون مرشداً ودليل عمل ومؤشر وعي سليم ..

والعمل على اصدار مطبوعات اسبوعية على غرار المشاريع البناءة التي كانت تعتمدها مصر في سنوات خلت، بغية نشر المعرفة، مثل: مجلة (تراث الأنسانية) التي كانت تتولى تلخيص وتقديم فصول منتخبة من أمهات الكتب العربية والأجنبية ومن قبل اساتذة كل حسب تخصصه وليس الاعتماد على كسالى الصحفيين لتقديم عروض عابرة للكتب الهامشية.. ومجلة (الكتب وجهات نظر) التي تقدم مراجعات وافية للكتب الأكثر أهمية في الوطن العربي والعالم ..

كذلك يمكن عقد ندوات ومحاضرات ومعارض تشجع على القراءة وإيلائها الأهتمام ..

ويمكن لدوائر وزارة الثقافة كافة ان تقدم كتباً منتخبة ونوعية ومفيدة للقارىء.. على ان تضع هذه الدوائر في حساباتها جدوى كل مطبوع تصدره.. وأن يكون خاضعاً للتأني والأنتباه من قبل اللجنة المزمع تشكيلها.. قبل الأقدام على اصدار أي كتاب او مطبوع .

إن عام القراءة 2015 يتطلب منا جميعاً الدعوة المخلصة الى دعم القاريء والقراءة.. وصولاً الى مجتمع عارف ونابه ومثقف، مدرك لواجباته ومسؤولياته.. وكذلك حقوقه ..

بغداد في منتصف القرن التاسع عشر(*)

قراءة في مذكرات قائد سفينة حربية

القراءة.. تأمل ومراجعة وإثراء، وهي كذلك.. ذاكرة بشرية إستقصائية للمعلوم والمجهول، فيما كان وحصل وترسخ في الأذهان، من أجل الوصول الى المعلومة الدقيقة، التي يمكن مقارنة تاريخها بحاضرها.. لتؤدي بالنتيجة الى خزين رصين يتعلق بتاريخ المدن الحية التي ظلت عصية على النسيان.

ومن هذه المدن التأريخية الأثيرة: بغداد، التي شكلت حضوراً بارزاً وهاماً في مذكرات قائد سفينة حربية كانت ترابط أمام المقيمية البريطانية في بغداد عام 1846م ويدعى : جيمس فيلكس جونز .

(*) **بغداد في منتصف القرن التاسع عشر/ تأليف: جيمس فيلكس جونز/ ترجمة: عبدالهادي فنجان الساعدي**

تعليق: معن حمدان علي .

منشورات : دار ومكتبة عدنان – بغداد 2014

هذا القائد لم يركن الى مهمته التقليدية في سفينة ترابط عند الشواطيء البغدادية العذبة، ولم يسترخ للكسل التقليدي المعهود عند كثرة من البشر، وإنما راح يبحث ويستقصي ويسجل ملاحظاته الدقيقة عن كل صغيرة وكبيرة تتعلق ببغداد/ المكان والزمان، والناس والمناخ والعمل والحياة اليومية وكل ما يمت الى هذه المدينة بصلة، وتقديم بانوراما عن بغداد خلال مدة زمنية وتمكن من معرفة كل تفاصيلها.. وكان من نتائج هذه الجهود المضنية ان تتكلل بأصرار كتابه المعنون: (بغداد في منتصف القرن التاسع عشر)، ترجمة الاستاذ: عبد الهادي فنجان الساعدي، وتعليق من الاستاذ المؤرخ: معن حمدان علي .

واذا كان جونز/ قائد السفينة الحربية البريطانية (نايتوكريس)/ قد عرف بكتابته التقارير المتعلقة بمدينة بغداد القديمة/ أكثر من معرفتنا له بوصفه المهني (قائد سفينة)؛ فأن المترجم الاستاذ الساعدي كان قد عرف عنه بحثه الدؤوب في شؤون الآثار وترجمة ماهو غائب ومجهول عن هذه الآثار العراقية، وما كتبه الآثاريون والمنقبون الأجانب.. والعمل على ترجمته الى اللغة العربية وإنصرافه الى البحث والاستقصاء، باحثاً عن الجذور لأرثنا الحضاري، متجاوزاً ذاته الابداعية التي عرف

بها من خلال كتابة القصيدة الحديثة، والمقال الثري بالمعلومة، الرشيق اسلوباً، الجميل بالمعاني والرؤى والأفكار ..

ولأن: عبد الهادي فنجان الساعدي، ليس مترجماً آلياً، أو تقليدياً بمعنى نقل الكلمة بعواهنها؛ فأنه دأب على تقديم تفاصيل وافية عن كل مفردة قد تكون مجهولة لدى القاريء.. متوجها الى شرحها والتعريف بها وتوضيح معانيها.. وهذا مايحسب له في تقديم المعلومة الراكزة والفهم العميق لما يرد في كتاب جونز هذا الذي إستوعب بغداد وأهلها وتزوج من بغدادية أرمنية وظل لصيقاً بذاكرة بغداد، حتى توفي عام 1868م في لندن.

ولم يهمل الساعدي حقيقة أن مذكرات جونز قد ترجمت من قبل: عبد الوهاب الأمين ونشرت في مجلة (المورد) عام 1974 مع نقد لاحق كتبه: حميد مجيد هدو، وكذلك نجله إسماعيل العزي عام 1979، لكنه يشير الى ان المترجم :(قد أهمل أقساماً مهمة من التقرير فضلاً عن الهفوات التي وقع فيها) من دون تحديد لتلك الأقسام وطبيعة الهفوات .. !

مشيراً في عين الوقت الى نسخة نفيسة تعود للمؤرخ العراقي الراحل: يعقوب سركيس ..

وفي تفاصيل الكتاب، نقف عند معلومة جديرة بالانتباه، لما تحمله من معانٍ حية يمكن أن تكون ماثلة أمام بصيرتنا اليوم، وهي أن بغداد التي: (اسسها المنصور قبل أحد عشر قرناً، وكانت مقراً للخلفاء العباسيين لمدة خمسمئة سنة.. وأصبحت عاصمة الامبراطورية التي تسيطر على العالم) وكانت قد :(إنسجمت مع الكتابات المقدسة الدينية والدنيوية، فضلاً عن الارتباط والانتشار المبكر للمسيحية ذاتها..) .

هذا الانسجام، هو الذي يعطي لبغداد ألقها وتحضرها وذاكرتها التاريخية الجديرة بالاستذكار.. على الرغم من إجتياح هولاكو لها في العام 1257م وتيمورلنك في العام 1400م ومن ثم إصابة أهلها بمرض الطاعون وإجتياح الفيضان في العام 1831م وفداحة جرائم الغزاة التي لحقت ببغداد وأهلها.. ومع كل ما مرّ ببغداد من ماسٍ ونكبات وحروب؛ إحتفظت بغداد بإسمها الاصلي وبقيت (دار السلام) وفي جانبيها: (الكرخ) بمعنى (المسكن اللطيف)، و(الرصافة) بمعنى (الضاحية الواسعة) .

وبات في عهدة التاريخ ورسوخ الذاكرة، الكثير من التفاصيل التي توثق لأحياء بغداد واهلها وأسواقها وجوامعها ومساجدها وحماماتها، ومناخها وأجور عمالها، والاوزان والمكاييل فيها، وذهب سكانها

وبقاليها.. وعشائرها، وخيولها وطيورها واسماكها، والادوية والعقاقير التي كان أهل بغداد يتنا ولونها ..

تفاصيل كثيرة.. تظل محصورة في الزمان والمكان والذاكرة.. لتشكيل خزيناً يمكن ان تكون مادة أولية لدراسات لاحقة تتواصل لتصل الى حياتنا الراهنة بكل ماتحمله من متغيرات .



كيف كتب رشيد رشدي:

المنعطفات الخطيرة في تاريخ الشعب العراقي؟[*]

رشيد رشدي، اسم مستعار لشخصية عراقية سياسية كانت من الرعيل الاول في الحركة السياسية العراقية التي تحمل سماتها الوطنية اليسارية والتي تواصلت نضالاً طوال مسيرة حياتها (1932-2011)

هذا الاسم يعود الى: عباس علي هبالة: الذي عاش اقل من ثلاثة عقود في مدينته الموصل، واكثر من خمسة عقود في منفاه.. لاجئاً في موسكو.

(*) منعطفات خطيرة في تاريخ الشعب العراقي- اطلالة تاريخية تقديم: د. نمير العاني- سانت بطرسبورج 2013.

وقد ظل يعمل محرراً في جريدة (انباء موسكو) ومحرراً ومراسلاً لعدد من الصحف والمجلات العربية.

وقد حفلت حياة رشيد رشدي بالعواصف والمرارات والملاحقات، الا انه ظل اميناً لمسيرته التي اختطها لنفسه من دون ان يغير اتجاهه.. على الرغم من اختلافه ورؤيته الخاصة في كثير من المواقف والقضايا الوطنية الملحة.. مع سواه من السياسيين.

وكان الامل ان يكون كتابه الصادر في سانت بطرسبورج/2013 قد حرره من هذه الالتزامات التي وضع نفسه بها، وجعله يكتب بمناخ حر، خارج اطار الدائرة الحزبية التي ينتمي اليها بوصفه مثقفاً سياسياً له رأيه ومعتقده..! الا ان كتابه (منعطفات خطيرة في تاريخ الشعب العراقي- اطلالة تاريخية) ظل اسير هذا الالتزام وهذه المواثيق التي قيد نفسه بها، بحيث لم يغادر ذاكرة الحزب الشيوعي العراقي الذي ظل منتمياً اليه حتى رحيله عام 2011 ومثل هذه الطريقة، من شأنها ان تحدد طبيعة البحث وتجعله يمضي في خندق واحد دون ان يحيد عنه، مثلما يرى جميع الامور والمواقف والقضايا من خلال موشور له منظور واحد ولا وجود لسواه.

صحيح ان الكتاب يعرض (اطلالة تاريخية) الا ان هذه الاطلالة، لم تخرج عن اطار ما كتبه حنا بطاطا في ثلاثيته الهامة عن (العراق) وقد

لا تغادره الا في حدود ضيقة جديدة بل قد يكون بطاطا قد تجاوز الامر بالرأي والحجة.. فيما ظل رشيد رشدي.. اسير العرض التاريخي العاجل.

لكنه من جهة اخرى اكد على حقيقة تاريخية تكمن في بقاء العراق (ميدانا لحروب متتالية بين المحتلين والدخلاء والطامعين والغزاة الايلخانيين والجلائريين ودولتي الخروف الاسود والخروف الابيض..) وسواهم من الضاغطين على الوجود العراقي.. وقد شهدت تلك الحقب الغاشمة:(المدن تحاصر وتجر رقاب المواطنين وتبنى المآذن من جماجمهم وتنتشر الاوبئة وتختلط الانهار بالدماء ويعربد الجنود بمقدرات الشعب وينهبون امواله، وتنتهك الاعراض ويفتك الجوع بالاهالي، وتحرق الكتب ويهان العلماء، وتدنس المعابد والاماكن المقدسة، وينتشر الفساد والاجرام ويترسخ الجهل وتسود الامية والشعوذة وتكتسح الفيضانات المدن والقرى ويسود التأخر ويستباح خيرة ما في التراث العربي والاسلامي ويكرس اسوأ ما في صفحات الماضي وتنحط الثقافة والابداع ويحجب النور ويسود الظلام) وقد اكتفى المؤلف بهذه الاشارات من دون الاشارة الى المراحل الزمنية ومحدداتها وابرز حكامها او القائمين او المسؤولين على سلبياتها.. وكيف تغيرت الامور وما آلت اليه الاحوال بعدئذٍ:

لكنه من جهة اخرى يمضي لتقديم صور شعبية اكثر منها تاريخية عن تاريخ العراق في ظل الاستعمار الغربي وبخاصة الاستعمار البريطاني.

ويعد رشيد رشدي ان ملك العراق الاول مستورد من الحجاز عام 1920 وهو لا يمكن ان يمثل او يرعى مصالح العراقيين، وانما يلبي حاجات من وضعه في هذا الموقع.. لذلك استعان بطاقم يحمل موالاته للبريطانيين.

ويعرض المؤلف للانقلابات المتوالية في العراق، والتي كانت في مجملها ترفض وجود الاستعمار البريطاني في العراق. كما يعرض للاحزاب الوطنية المحظورة وكيف كانت تعمل سراً، وكيف جند اعضاؤها انفسهم لتوحيد الصف الوطني ليكون بمواجهة المحتل.. مشيراً الى دور الصحافة الوطنية في هذا الميدان وكيف كانت الاقلام تنبري لفضح السياسات القمعية للملكية البائدة وكيف كانت تحارب الفكر التنويري الذي كان يجتاح العراق.

وفي انتقال المؤلف الى ثورة 14تموز 1958 يشير قائلاً:

(ان الثورات لا تصنعها الاحزاب السياسية ولا القادة والزعماء ولا ائمة الاسلام ولا تمرد الشيوخ في بلد كالعراق ان صانع الثورات ومنها ثورة 14 تموز 1958 هو الاستغلال الطبقي والاضطهاد القومي والظلم

الاجتماعي الذي خلفه نظام الاحتلال البريطاني ومرتكزاته الاساسية: الاقطاع والبرجوازية الكومبرادورية وزمر البيروقراطيين الطفيليين..)

الا ان الوقائع التاريخية تؤكد ان جميع الذين حدد المؤلف هوياتهم الى جانب الاستغلال الطبقي القومي والظلم.. كلها مجتمعة هي التي اشعلت ثورة تموز ومثلها كل الثورات الوطنية في العالم..

اما ان يكون (الاستغلال الطبقي والاضطهاد القومي والظلم الاجتماعي) ثلاثي لوحده هو من قام بالثورة؛ فأنه فهم سياسي- ايديولوجي متعنت لا يقبل بجملة العوامل الفاعلة والمؤثرة والمغيرة.

صحيح ان (الاستعمار البريطاني كان يغذي التناحر بين القوميات والاديان والطوائف ليس في الموصل وحدها بل في العراق كله الا ان هذا (الغذاء) لم يأت اكله بدليل ان العراق ظل قائماً مع وجود طوائفه وقومياته واثنياته واديانه المختلفة.. وقد عاش الجميع بأخوة وصفاء ووحدة وتعاون.. الى ان دخلت قوى ظلامية عملت- مثلما عمل الاستعمار البريطاني- على شق الصف الوطني والعمل على تمزيق الوحدة الوطنية في السنوات اللاحقة وحتى الآن.. الا ان معظم تلك الاساليب لم تجد استجابة تذكر وظل العراقيون يوحدون صفوفهم ويلتمون على بعضهم، انطلاقاً من وعيهم ان الوطن لا يحميه الا اهله.. ولا يمكن للاهل ان يحيوا ويقووا على سواهم الا بوحدتهم

وانتمائهم الى وطنهم.. ويعترف رشيد رشدي بان قتل شخصيات من عوائل عراقية معروفة في الموصل عام 1959(لم يكن مبرراً وكان اكبر خطأ ارتكبته المقاومة الشعبية وقادتها وهو عمل مدان ومرفوض) مضيفاً: (ما كان يجب قتلهم، وليس من حق المقاومة قتلهم، وكان على السلطات محاسبتهم، ولكن السلطات لم تكن موجودة اصلاً).

ومثل هذا الموقف ومن قبل قيادي بارز في الحزب الشيوعي العراقي- يعد موقفاً صادقاً وصريحاً وشجاعاً، وقد يكون سباقاً الى النقد والنقد الذاتي الذي يعتمده عدد من السياسيين التنويريين ومنهم مؤلف هذا الكتاب.

وامعاناً في ادانة هذه الاساليب اشار المؤلف الى شخصية سماها: (..الازيرجاوي) تبرع بحضور التحقيق والقيام بتعذيب المعتقلين، ولدى اطلاعي – يقول المؤلف – على الامر قمت بمحاسبته وابعاده عن اللجنة العسكرية وارسل الى الخارج) ثم انتحر او قتل في سوريا!

كذلك يكشف رشيد رشدي عن دعوته قيادة الحزب الشيوعي العراقي للانقلاب على الزعيم عبد الكريم قاسم الا ان تلك الدعوة قوبلت بالرفض وعدت (مغامرة) ومن ثم (طلب الي الاستعداد لمغادرة العراق الى الدراسة في الاتحاد السوفيتي)

الا ان مقولة (الشهيد جلال الاوقاتي من ان قاسم سوف يدمرنا ويدمر نفسه) قد تحققت في اللاحق من الايام.

ومن المواقف المهمة الاخرى التي اشار اليها الكتاب: (ثقل الموقف السوفيتي من شعار اشراك الحزب الشيوعي بالحكم واعتبرناه خاطئاً واستفزازاً لعبد الكريم قاسم، وامتثلت قيادة الحزب الشيوعي العراقي الى الموقف السوفيتي) متخلية عن الموقف الصيني الذي كان يدعو الى تغيير عبد الكريم قاسم والانقلاب عليه او مشاركة الشيوعيين في الحكم على اقل تقدير..

ومثل هذا الموقف الذي يكشف عنه قائد ومؤرخ مثل رشيد رشدي والمتعلق بأخذ الاوامر من الاتحاد السوفيتي.. يعد خطأ فادحاً للشيوعيين في العراق وهو الامر الذي لم يتعلمه و لم تستجب له كثرة من الاحزاب السياسية التي ظلت اسيرة توجيهات خارجية!!

ان هذا الكتاب.. على الرغم من العجالة والسرعة والاعتماد على الذاكرة وعدد محدود من المصادر في كتابته؛ يعد كتاباً تاريخياً جديراً بالانتباه، بوصفه يجسد ويؤرخ لمرحلة ساخنة للعراق عامة ولمدينة الموصل تحديداً وهي تواجه الموت والدمار والفوضى عام 1959.

كما يكشف عن مواقف وطنية وشخصيات لا يمكن اغفالها من ذاكرة المتلقي بوصفها شخصيات ساهمت في بناء الاحداث التاريخية

التي مرت عليها بكل اخفاقاتها وسلبياتها.. والقليل القليل منها حتى عام التغيير في 2003/4/9 التي راحت كل اوراقه تتكشف وكل عوامل ضغوطه وازماته تشتعل..

كتاب يحترم فيه كاتبه مواقفه، ويعرض اوضاعاً ساخنة ليس من السهل اغفالها من تاريخنا العراقي المعاصر.

تقاسيم على وطن منفرد

قراءة في نصوص يحيى علوان(*)

الوطن.. قلب وعقل وذاكرة الانسان.. به يكون من خلاله يحقق وشم هويته .

وفي الغربة، يحول هذا الوطن الى ما يشبه الشمس البعيدة، او القمر المستحيل، او البحر الممتد، او الصحراء المجهولة، او السماء المتسعة.. والمفتوحة على كل الآفاق.. وقد يكون الجميع.

والكاتب العراقي المغترب الذي يعيش في ألمانيا منذ سنوات : يحيى علوان؛ يستعيد ذاكرة الوطن بكل ما تحمله هذه الذاكرة من شؤون وشجون، من اوجاع وعذابات وسجون وانتظارات.. الى جانب تلك اللهفة المرتجاة للحياة الرغيدة والصفحات الجميلة التي عمل طويلاً من

(*) تقاسيم على وطن منفرد/ يحيى علوان / دار كنعان – دمشق 2014

أجل اشراقها.. لا بالنسبة اليه بوصفه ذاتاً، وإنما بوصفه كائناً إجتماعياً، ليس بوسعه إستثناء نفسه من دون الآخرين .

ومنذ الصفحات الأولى لنصوصه التي أصدرها بعنوان: (تقاسيم على وطن منفرد)* يكتب يحيى علوان :

" ليس تمييزاً ضد بقية الأوطان، لكنه الوحيد في الكون، حتى اليوم، فرادته تتأتى من كونه (تحرر) محتلاً".

إنه لا ينطلق من موقف عنصري مرفوض، يميز وطنه عن كل الأوطان.. إن ميزة وطنه تكمن في هذا الوعي المستلب والمقهور والمدمر والمسحوق الذي يريدون من خلاله (تحسين) سمعة المحتل، واصفين احتلاله بـ (التحرر) وهو واقع ندركه ونتبين جذوره ونتائجه وكل أساليبه يومياً وفي كل ميدان من ميادين الواقع العراقي الراهن ..

نعم.. نحن في (عراق تحرر محتلاً) وهو وصف لواقع حقيقي ننوء جميعاً تحت ثقله وكوارثه وجرائمه وفساده على اوسع نطاق وعلى أكبر قاعدة يمكن للعراقيين العيش تحت ظلاله السقيمة ..

يحيى علوان، لايستسلم لهذا (التحرر / الاحتلال)؛ وإنما يستل منه صفحات مشرقة لذكريات موجعة ولمسيرة ذاتية، يمكن أن تقرأ بوصفها ذاكرة وطن، وذاكرة نخبة من الوطنيين العراقيين الذين عرفوا بنضالهم الباسل فوق جبال كردستان بوصفهم (انصاراً) .

إنه يعتمد ضمير المخاطب.. الخطاب الموجه للذات: ((رتب رفوف ماضيك، بضمير نقي)) وفعلاً نتبين على امتداد صفحات هذا الكتاب الأثير، كيف رتب يحيى علوان ذكرياته بضمير ناصع البياض.. منطلقاً من بحثه عن (صمت مشترك) هذا الصمت الذي تحول الى غابات من الكلمات الحية التي وجدنا فيضها في هذه النصوص المشبعة بالتجارب الجميلة والمدماة على حد سواء !

يقول: ((حر أنت الآن.. عادي، يمكنك ان تجلس المخيلة في حضنك، تسرح ضفائرها، حتى تستسلم مطواعة)) .

على وفق هذا الانتماء الحميمي للذاكرة، يستعيد يحيى علوان ترتيب مكتبة الذاكرة والتي يحملها معه داخل وخارج الوطن.. فـ (قد يمد يده لتحسس موضع الوجع في ساقٍ لم تعد موجودة أساساً، وقد يلاحقه الوجع الوهمي- وجع الشبح – الى آخر العمر) مضيفاً وموضحاً: ((وجعك شديد، شديد.. جداً، جراء إصابة روحية فكرية، لاوقت لأحد كي يداويها، وسط زحام اللحم البشري المنثور في كل مكان من منبت الذكرى)).

ومثل هذا التحول الأيجابي الذي تنتقل فيه الأوجاع الى كلمات مجنحة، من شأنها الانتقال بالمتلقي الى احترام القيم والمباديء والأفكار التي يحملها هذا الطراز من الناس.. وهم يقدمون حياتهم رخيصة أمام

وطن يعشقونه وينتمون اليه حتى الموت الذي يحولونه كذلك الى نبت يمكن للآخرين الاهتداء الى نمائه وخضرته وبهاء وجوده .

وعندما يقدم لنا يحيى علوان شخصية وطنية مثل (ابو داود) النصير الذي فقد عينه اليمنى واصابته بجروح عند احتلال ربيئة عسكرية وعمليات للأنصار.. مات بحادث مروري في كابول عام 1988، ليذكرنا موته الباهت بحادث مروري داهم المبدع الكبير البيركامو في الجزائر ..

وما كان هذا الحادث المروري ليذكر تسع سنوات من النضال الباسل مع الأنصار لـ (أبو داود) ولا عطاءً فلسفياً وابداعاً كبيراً لـ (كامو).. لذلك يجد الكاتب نفسه ((حياً بالصدفة)) وان الموت يحاصر دائماً كل الخيرين الذين ينذرون أنفسهم للآخرين ..!

ان صورته كما يرسمها :((لاتستطيع الحديث الى أحد، فأنت مركون هنا مثل أية حقيبة او رزمة بريد تنتظر الشحن الى مطار آخر، لايجرؤ حتى الحارس الحديث معك، كأنك حاطوم أو ابليس..)) .

هكذا يحاصر اللسان، ويتحول الأنسان الى أداة هامشية.. لا حاجة لأحد بها إلا في ضرورات محدودة جداً.. مع ان هذا اللسان يمتلك قدرة عالية للبوح والاعلان عن ضرورات إنسانية هامة جداً.. ومع ذلك و((لأنك تكره الأنتظار، ستشتري أملاً لتقريب وطن هارب)) .

بهذه الحميمية وهذا الاخلاص العميق وهذا الانتماء المخلص.. يكتب يحيى علوان عن الوطن.. وعلى وفق هذا الانتظار يتفاءل :

((ما أجمل ان نتغلب على الحرب فينا بهذا الخوف اللذيذ، يوحد الجسدين، نفوس في مسار اللذة صعوداً.. صعوداً.. كالفراشات مدوخة بالزهر، ساخرين من عواء الحرب بعواء الجسد الملتاع من الشد)) .

إن الانسان المناضل.. ليس إستثناء عن الآخرين في احاسيسه ومشاعره وعشقه ورغباته.. بل هو أكثر قدرة على تقدير وتقييم واحترام أية علاقة حميمية تجمع بين عاشقين.. بوصفه إنساناً يمتلك رؤية تحترم الآخر ومشاعره حدّ التقديس.. فيما يحولها اولئك الناس الجوف الى إهانة وابتذال ونزوات عابرة لاقيمة لها في صنع الحياة ..

يقول يحيى علوان وهو في زهو الوقت:(السماء نظيفة كأنها صبية مغرية خرجت من الحمام تواً) وهو وصف دال على النظرة التي قدّ صاحبها من مجموعة خيرّة تعرف قيمة الجمال وتتعامل معه بذكاء ونباهة واشراق .

وهو نفسه يعي جيداً مايدور حوله.. ويخاطب المتسلطين على رقاب الناس: ((استبدلتم دكتاتورية فرد بدكتاتورية الغيب والخرافة)) .

ان المؤلف ومن منطلق فهمه وادراكه لما يمر به العراق من محن وعقبات وازمات شتى.. يتساءل لماذا لايوجد عندنا مثل (القس الألماني مارتين نيمولار الذي حاكم نفسه عن دوره ايام الحكم النازي، بقصيدة قال فيها :

"عندما جاءوا واخذوا الشيوعيين
لم أقل شيئاً، لأني لست شيوعياً
ولما لم أكن واحداً منهم ،
ماقلت شيئاً
ثم جاءوا وأخذوا جاري النقابي،
وبما أنني لم أكن نقابياً، فما قلت شيئاً
وعندما أخذوا الشماس الكاثوليكي
كذلك لم أقل شيئاً لأنني بروتستانتي
....
ولما جاءوا وأخذوني،
لم يكن هناك أحد يقول شيئاً لآجلي "

هنا تكمن اللامبالاة، او اثرة الذاتية العمياء التي لا ترفض ولا تكون شاهداً ولا تدخل في مواجهة مع اولئك الطغاة الذين يعمدون الى اعتقال العقل وقتل كل ما لا تتفق معهم في اساليبهم القمعية

وتوجهاتهم التدميرية واعمالهم التخريبية وفسادهم على وفق كل الصور والاتجاهات ..

إن يحيى علوان.. وهو يتنبه الى "الاتفاقية الأمنية وهي تطالبنا عملياً، والى زمن نجهله، بأن نقايض موتنا (الآمن) بحياة المحتلين الموتورة، كأن علينا إنقاذ الاحتلال من مصيره.. "

أما "إذا ما تساءلت متململاً وبسذاجة، ماذا يريد المحتل في وطني، سأتهم فوراً بالارهاب والصدامية..) !!

يحيى علوان.. يمتلك القدرة على الغضب والتمرد والمواجهة ومن ثم الشجاعة على عكس مايقوله سقراط:(من لايمتلك القدرة على الغضب، تعوزه الشجاعة) .

وبعد :

هذه النصوص – وإن تنبه صاحبها الى تكرار بعضها.. كما يشير:

"حفزني، ولا أقول استفزني، قول صاحب لي.. يأأخي موضوعك واحد.. نفسه، تعود اليه.. وبشكل جاد "؛ تظل نصوصاً دائمة الحضور في حياتنا.. واستعادتها وتكراراها على وفق ألوان وأساليب ورؤى مختلفة؛ تبقى نصوصاً جديرة بالقراءة والتأمل والمراجعة.. واحترام واكبار جهد نضالي وفكري معمق لكاتب مجتهد مثل يحيى علوان ..

الحرب والوحدة في عالم لطفية الدليمي القصصي

ليس من هاجس يلاحق المرأة ويغلق عنها أفق الحياة، أكثر من شعورها العميق بالوحدة والعزلة والغربة عن العالم المحيط بها .

أن تكوين المرأة البايولوجي، وادراكها السايكولوجي قائمان في أساسهما على الحماية، وحماية الآخر لها.. بحيث لاتقوى على مواجهة ظنك الحياة ومحن الوجود من خلال الآخر وليس بمعزل عنه أو على الضد منه.

ولا تُستثنى الا النادر من النساء المتفردات في اعتمادهن على انفسهن ومسارهن بثقة عالية بالذات.. الا ان هذه الندرة تجد فرصتها على الاقل بوجود الآخر لا بعيداً عنه .

ولا يكون هذا الآخر سوى الرجل، انها غوايته وانه غوايتها. ليس من امرأة تعزف عن حياة محمية من قبل رجل ..

ومن هذا المعطى، ابرزت القاصة العراقية: لطفية الدليمي حالة المرأة في محنة الوحدة وذلك من خلال مجموعتها القصصية: (ما لم يقله الرواة) فهل قالت ما لم يقله أحد قبلها ؟

اننا ننوع على كلام قيل، وعلى طريق سار على هداه سوانا، وسبحنا في انهار عبرها كثيرون قبلنا.. لكن قدرتنا على البوح على نحو مختلف في مفرداته ورؤاه، هو الذي يجعل من كتابة لطفية الدليمي كتابة جديدة.. لم يقلها الرواة من قبلها، كما قالته هي.. حتى اذا كانت شهرزاد حاضرة، ادركنا انها كانت تنوع على كلام سبق ان قيل مراراً، الا أن فضيلة لطفية تكمن في رصدها عوالم جديدة لم تتبينها شهرزاد.. فهي ترى أن :(مشاغل الرجل الأسرة، أحلامه التي لها فعل سم لذيذ مسكر، حيويته، ايقاع مشاعره المتسارع، قوته، تغيرات مزاجه، حدسه، ووهج روحه، وحدته، زمنه، كل ذلك يجتمع ويتلاشى في ولع جنوني واحد بإمرأة من زمن آخر. نساء عديدات، عبرن افقه ثم انطفأن ما بين توقه اليها وانخذاله بهن، تساقطن جميعاً، فجمع انقاضهن منها تماثلها الشمسي ..) .

ان القاصة هنا تعكس نظرة الرجل من منظور امرأة نحوه وليس العكس، بينما عكست "ألف ليلة وليلة" وسواها.. أزمة شهرزاد في ظل قسوة شهريار، الذي قام باعمال نظرته السوداوية نحو المرأة..

وبقي وجودها مرهونا برضاه عنها.. على الرغم من حاجته الملحة اليها .

ان انطفاء حياة امرأة في حياة الرجل.. مسألة عادية، في حين يكون انطفاء الرجل في حياة المرأة.. مسألة نادرة.. وبمثل هذا الموقف وسواه تلح رؤى لطفية الدليمي، وكانت هي المسؤولة المخول بالدفاع عن بنات جنسها من عسف الرجل.. ومثل هذا يطبع الادب النسوي ويميزه عن سواه.. من الادب الذي يكتبه الرجل، حتى عدّ مفهوم :(الادب النسوي) مفهوماً/مصطلحاً نقديا واضح المعالم .

ولان تكون القاصة في حالة تجاوز، يعني ان تكون دائمة الحضور: (لم تعلمك الكتب سوى ان لا تكون كما أنت) .

وهذا حاصل فعلاً، فما بين قصصها الاولى: (ممر الى أحزان الرجال)/1970 ، ومجموعتها (ما لم يقله الرواة)/ 1999، مروراً بقصص وروايات: البشارة/ 80، التمثال /77، إذا كنت تحب/ 80 ،موسيقى صوفية /94، من يرث الفردوس/ 78، بذور النار/ 88، ظلت لطفية الدليمي أمينة ومخلصة لرسالتها الواعية، منوعة عليها، عازفة على اوتار تعرف مدياتها ونبراتها وسبل ايصال اصواتها..مما جَعل أدبها، أدباً مسؤولاً، يؤثث لغة ورؤية في كل عمل لاحق .

لطفية.. تتطور باتجاه ترسيخ لغتها القصصية التي تستجيب الى شفاف القلب، وحنين الروح، وادراك العقل، والهاجس الذي يترقب ويتنبه ويسعى للخروج من كل عوالم التضيّيق والاختناق، ذلك ان القاصة تبحث لشخصياتها النسوية عن عوالم جديدة، من منعطفات تجعل الطرق امامها سالكة تستجيب للرغبة فيها .. ممتدة الى اللامحدود : (لو لم يتلاشى في دخان الحروب.. لو انه.. لكان الآن معها.. ولاضحكها من تجليات خوفها وضحكا معاً، لو انه.. لاستسلما إذن لمباهج صغيرة، همس، للمسة يد، لأحاديث، لاحتساء شاي او فنجان قهوة، ولألقت برأسها على صدره وبكت من فرط امتلائها بالحياة، لو انه.. لكنه الآن بعيد.. مسافر في الغروب الكبير، لو أن لها إبناً يشبهه لكمنهما الرجل والأبن في غيب الزمان البعيد، لن يعرفا حاضرها المضطرب ولوعتها، وحدتها، هما: الحقيقة والأمل.. ضاعا معاً في اغسق الممتد وراء الصيف ودخلا لعبة النسيان وغمائم دخان الحروب) .

هذا البوح ترشدنا اليه قصتها: (جياد في الليل) التي تبحث عن : (حرير النسيان)و(ترتيق الساعات) و(القهوة البيضاء في ترف الحليب) لـ (تدهن القهوة اجفانها بمرهم الصحو والتذكر) .

وينوء ويثقل الحرب على المرأة في قصة (حمامة في الظهيرة) حيث: (يكتشف عالم المرأة في نهار آب المجفف، آب الذي يمتد على النوافذ والساعات مثل عنقاء تواصل احتراقها طوال النهار ثم تبعث حية في الليل تحت يقظة النجوم ورعشات النخيل) .

ان ظهيرة كهذه تمر في حياة المرأة الوحيدة.. يبدو(حرها يسجر الألوان) و(وجه الرجل ذائب في الشمس) .

ان امرأة لطفية الدليمي، امرأة تواجه ازماتها وحيدة.. وحدتها متأنية من فقدان الرجل الذي أخذته الحرب، ودمرت وجوده أوجاع الحرب مثلما جعلت منها كائناً يعيش الألم وحيداً، ينتظر من لايجيء من الدم والدموع والموت البريء والمخطوف من شجرة البقاء .

المرأة هنا لاتجد من سبيل لأنقاذ نفسها، لخلاص روحها سوى ايقاظ النسيان واستعادة الذكريات بأجمل صورها، نحو واقع أكثر إيلاماً ومأساوية وتدميراً للعقل والنس والروح.. انها امرأة: (خلدت في تاريخ ساكن هيأها لاتملاك صبر خرافي في أزمة التهديد والجوع والخراب الكبير) في حين (يبدد الرجال أرواحهم برعماً برعماً على الصفائح الساخنة وفي اسواق المضاربات وتجارة الاغذية في زمن المجاعة..) نجد المرأة تبحث في: (الترف الزائل لحياتها عن زجاجة

حليب وقرص دواء لأغراض ظهرت بعد الحرب وانتشار الحرائق والاشعاع) .

هذا ما تكشف عنه قصة: (شفرات العصر الشمسي) .

ونتوجه نحو قصة: (شفرة العاصفة) لنتبين عالم الذين: (حلّ بهم ضنك الحصار وخرابه والعاشقات اللائي ارتشفت أفواه الحرب رجالهن..) وكان من نتائج الحرب والحصار أن باعت المرأة في قصة: (أخف من الملائكة) كتب الفلسفة والتاريخ لتشتري خفاً وقليلاً من القهوة .

ان المرأة هنا تقول لصديقتها: (لا أجد نفسي فانظري انت الى نفسك هل تجدينها).. وهكذا تواجه (رعب تحولاتها وحيدة) .

وتستمر في تقديم انعكاسات حالة الحرب والوحدة في قصة: (رغوة الغرف الذابلة) لتجد بطلة لطفية الدليمي نفسها في (خريفها وليس خريف [هما] تحاول.. تحاول نسيان غروب الرجل في المغيب.. الدم، الحرب، الفقد، الخريف، خلاّها نصف المرأة عافها وحدها في وحدة المطر..) وراحت تحلم بالسلام.. (وذات سلام وذات حرب فقدتهم جميعاً .. الرجل، وأخاه والطفل والحب والسلام، ضاع الرجل وراء أخيه، وأخوه وراء أرضه، وأرضه وراء حلمه، وحلمه وراء الزمن.. زمن، زمن وهمي) .

وفي قصة: (الريح) تتصدر عبارة جلال الدين الرومي القائلة: (القش هو الذي يترك مكانه حين تعصف به الريح).. بينما نجد المرأة: (تحاول منحه — الرجل- القوة ليتماسك بوجه الريح) .

ثماني قصص تضمنتها مجموعة: (ما لم يقله الرواة)(*) لطفية الدليمي، تضعها امام نساء وحيدات يعانين من فقدان كلي لمعنى الحياة، جراء حرب مدمرة، جعلت تسلب المرء كل ومضة نابضة بالفرح.. ليصبح فرحاً داميا تنوء تحت وطأته المرأة أكثر من الرجل وتركن اليه وتستسلم الى أمنه وسلامه .

ان لطفية.. كأنما كتبت قصة موحدة العوالم، متنوعة الصور، او قدمت فصولاً من رواية ذات مناخ واحد.. ولا نعد هذا خللاً او فقراً في تناول موضوعات مختلفة، بل نحن نعد القاصة في حالة تجسيد وحضور ووطأة عالم ليس بمقدورها الانفصال عنه او الابتعاد عن هواجسه وقلقه ووطأته.. الامر الذي يجعلها تتناوله بهواجس مختلفة، بايقاعات متعددة وبلغة مكثفة، تظهر توتر الكائن الانساني وهو يواجه أسى الحرب والدمار والوحدة والجوع واللاأمان ..

لطفية الدليمي، من أكثر كتاب وكاتبات القصة العراقية حضوراً في تشخيص حالات الأزمات الحادة التي تواجه المرأة، بلغة شفافة،

(*) ما لم يقله الرواة/ قصص: لطفية الدليمي /منشورات / أزمنة /ط 1 / عمان 1999 .

متوترة لاتفقد شاعريتها حتى في أكثر اللحظات مأساوية، بل بالعكس نجد الكتابة أكثر اشراقاً في لغتنا عندما تقدم الهواجس الداخلية والفعل القلق الذي تعاني منه المرأة في ظل حرب دامية، ووحدة تفتت الروح .

تحليل وانهيار المجتمع

في رواية (ابواب الفردوس) لناطق خلوصي

من طبيعة المجتمعات أن تتفاعل وتتواءم ويلتحم أفرادها انطلاقاً من طبائع بشرية أزلية تقوم على التعاون والتآزر والمصالح المشتركة التي تجمع أفراد العائلة الواحدة مع العوائل الأخر ليشكلوا مجتمعاً متآخيا ًومنفتحا ً بعضه على الآخر . لكن افرازات المشاكل السياسية والاقتصادية من شأنها أن تهدد هذه الطبيعة الاجتماعية الموحدة وتعمل على تفكيكها وتحليلها ومن ثم انهيارها أفرادا ً وجماعات وصولاً إلى واقع اجتماعي ممزق يعيش تصدعاً وصراعاً وانحداراً في صميم قيمه الأخلاقية .

صحيح ان السياسة كنظام يراد من خلاله سيادة العدل والمساواة من خلال قوانين ترعى مصالح الجميع وعلى حد سواء .. وصحيح أيضاً أن يكون اقتصاد البلاد منظماً بحيث يبني ويعمر البلاد ويرقى بحياة المجتمع.. ولكن الأمر سيكون معكوساً اذا ما تحولت السياسة

إلى سلطة والاقتصاد إلى هدر للمال العام ، وهذا ما عملت رواية (أبواب الفردوس) لناطق خلوصي على تناوله وكشف وقائع هذه الأبواب التي تعد(فردوساً) لصاحبها ، فيما هي (جحيم) لقيم وحاجات ومتطلبات مجتمع بأسره .

ان شخصية نذير الحسيني محور هذه الرواية شخصية لها جذر عائلي في البلاد فيما هي تعمل تجارياً في الخارج حتى لنجد الزواج هناك له حساباته التجارية لا الاجتماعية الأسرية المتعارف عليها .

نعم .. هناك عمل تجاري محدود في داخل البلاد لكنه عمل ضخم وأوسع خارج البلاد .

ومحدودية هذه التجارة في الداخل انعكست على تحلل أفراد عوائل عديدة في مقدمتها عائلة (نذير) نفسه وما يحيطها ويربطها بعوائل أخر . .

الأب على خلاف مع أخيه اليساري والخال مخبر يرتدي ثياب الورع والتقوى ليستغل محلات في عهدته وعائلة ينتمي اليها ويريد التنكيل بأفرادها لأنها تتعارض مع مصالحه . والأخت راغبة في أخيها والنساء مفتونات بجمال هذا الأخ الذي لا يتورع عن اقامة علاقة محرمة مع زوجة أبيه ومدرّسة أخته وموظفة الجامعة . ويسكت عن مشهد غرامي لأخته مع ابن عمها ، وابن العم هذا لا تحول نزواته دون إقامة علاقة محرمة أخرى مع زوجة عمه الأخرى كذلك.

أنماط مختلفة ومتشابكة من العلاقات الاجتماعية المحرمة وغير المقبولة في الأعراف والقيم والمبادىء الدينية والاجتماعية . وفاء مفقود بين الأزواج والزوجات ودعوات مستمرة من الاغراءات والتحلل والتفكك الاجتماعي يملأ صفحات هذه الرواية التي تبلغ (348) صفحة .

والروائي ينتقل من علاقة إلى أخرى ومن مشهد إلى آخر وفي جعبته أحداث مفصلة لما جرى ولما فسد وانهار وتبدد .. حتى لنجد ان اللحمة الاجتماعية والمؤسسة الاجتماعية في بناء الحياة الزوجية تفقد معانيها حين تشتبك مع دوائر أخرى ولا يمكن الاطمئنان إليها إلى ما لا نهاية . ذلك ان نهاياتها تنهار شيئاً فشيئاً ضمن نوازع فردية ومصالح أنانية وطموحات رغبات سلبية لا تجد سبيلها إلى نتائج ايجابية أبداً .

وحتى يضفي عليها الروائي دلالات ويعطيها أبعاداً يحيلها في نهاية الأمر إلى الحروب المتتالية ومن ثم إلى احتلال الكويت وانقطاع أواصر التجارة بين البلدين .. ومشاهدة الحياة التي تتحول اجتماعياً إلى عزلة وتفكك ودمار ومن ثم إلى رماد . من هنا نجد ان قراءة هذه الرواية على وفق هذه الرؤية قد يعطيها بعداً ينشده كاتبها .. وهو ما يوحي به ويومىء إليه في أكثر من مكان .

لكننا إذا قرأنا الرواية على وفق الوقائع المادية التي كتبت بها فإننا عندئذ نجد في هذا السرد الطويل ما يجعله قائماً لذاته ـ مشدوداً إلى بعضه ، مشوقاً إلى تسلسله ، راغباً في إمتاع قارئه بمشاهد عاطفية ليس بوسع أحد العدول عنها والتخلص من هيمنة قراءتها ومعرفة تفاصيل مشاهدها الشيقة .

غير اننا من منطق ثالث لابد أن نجد في لغة (الفردوس) الإيحائية التي يدعو إليها الروائي في مواقع عديدة كما يشيرإلى أن (الفردوس) الذي تعنى به الرواية ليس فردوساً ميتافيزيقياً متخيلاً وإنما هو فردوس حياتي يمكن الوصول إليه والتمتع به والعيش في ضوئه الذي يوحي به ويشدنا نحوه.

وقد يكون الحرمان الاجتماعي والطقوس المحيطة بالجو الحميمي الموجع والثقيل والمكبل لعوالم الشخصيات هي التي تجعل من هذا الجو فردوساًمرتجى وبالميسور الوصول إليه ، بعيداً عن الخطين : اليساري / المنكسر وغير الفاعل في هذه الرواية ، والديني/ المكشوف أمره وتوجهه ورجعيته وخطابه المقترن بالكذب والاستغلال .

نعم .. هناك ملامح بعيدة وغير أساسية ، وإطار غير مرئي تماماً.. في عالم هذه الأبواب الفردوسية ، لكن ناطق خلوصي كان حذراً قبل الخوض في عمقها والاندفاع التفصيلي إلى مؤثراتها على شخصيات روايته وهو الأمر الذي جعل المتلقي يقرأ هذه الرواية

بشكل احادي يغلب عليه الطابع المرئي مجرداً عن اللامرئي الذي تومىء إليه هذه الأبواب التي ظلت مقفلة على العاطفة مجردة من أبواب أخر تنفتح على آفاق أرحب وأدل وأشمل كان بمقدور هذه الرواية أن تتناوله على وفق سبل أكثر انفتاحاً واهتماماً وانتباهاً . إلا ان حذر الروائي جعله ينشد إلى الأحداث الاجتماعية المفككة والمنهارة ، أكثر بكثير من تناول أسبابها ، وهي أسباب سياسية واقتصادية على نحو دقيق . لكن ناطق خلوصي عزف عنها لئلا يسقط في المباشرة أو ينقل الفن الروائي إلى رسالة واضحة الدلالة . لقد انتهى بهوية لا يريد البوح ولا التصريح بها ، مع انه يؤمن بها وينطلق من خلالها ويصدق صدقاً نبيلا فيها .

لقد اختارت رواية " أبواب الفردوس " لنفسها طريقاً أحادياً جعلها رواية رومانسية ممتعة ومكتوبة بلغة صريحة واضحة خالية من الايحاءات التي اختفت في ثناياها دلالات منطقية ظلت تشكل خلفية غيرمرئية .. إلا في حدود ضيقة قديستشفها قارىء نابه ، فيما يفضلها قراء هم من الكثرة التي ترى في هذه الصفحات الطويلة متعة في وقت سقيم نحتاج فيه إلى مثل هذه الأبواب التي تفتح أمامنا فردوس العواطف التي تكاد تنطفىء وهي في خريف أعمار تساقطت سنواته .

السيرة الذاتية للكاتب حسب الله يحيى

- ولد في مدينة الموصل عام 1944.
- عمل في التعليم لعدة سنوات في القرى الكوردية .
- مارس العديد من المهن وأكتسب خبرة مهنية واجتماعية واسعة.

اصدر الكتب الآتية:

المجاميع القصصية

1. الغضب - الموصل 1967 / مطبعة الزهراء.
2. القيد حول عنق الزهرة- منشورات مجلة الثقافة - بغداد 1974
3. ضمير الماء/دار العودة — بيروت 1972.
4. الحطب/ بيروت دار الثورة العربية 1974.
5. النهار يدق الأبواب(قصص ومسرحيات)- دار الأديب - بغداد 1977.
6. هي... أمرأة عراقية / المؤسسة العربية — بيروت 1982.
7. الاشواق- دار الشؤون الثقافية 1986 بغداد .
8. كتمان - دار الشؤون الثقافية 1989 بغداد.

9. أنفاس – دار الشؤون الثقافية 1993 بغداد.

10. كوميديا الكاتب في الزمن الكاذب – اتحاد الكتاب العرب– دمشق 1999 .

11. حدائق عارية – أتحاد الكتاب العرب – دمشق 2001.

12. أغتيال الحنين (رواية) – دار الحرية بغداد 2001.

13. أجنحة حجرية – دار الشؤون الثقافية 2001 بغداد.

14. هواجس/ دار الشؤون الثقافية – بغداد 2002.

15. ارهاب — قصص،صدرت عن المجلس الاعلى للثقافة — القاهرة 2003

16. حكايات من بلاد ما بين النارين ـ قصص ومسرحيات ـ دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 2008.

المسرحيات:

أصابع القرنفل/ مسرحيات للكبار والصغار. ترجمت الى اللغة الكردية ونشرت عن طريق دار الثقافة والنشر الكردية في وزارة الثقافة — بغداد 2006.

قصص الأطفال :

1. دفاع عن الفرح– أتحاد الشباب– بغداد 1977.
2. الفراشات– دار ثقافة الاطفال– بغداد 1997.
3. سمكة تعرف كل شيء – دار الهلال–القاهرة 2003.

الدراسات:

1. مقدمة في مسرح الاطفال - دار ثقافة الاطفال- بغداد 1985.
2. فنا رات في القصة والرواية- دار الشؤون الثقافية - بغداد 1993.
3. المسرح العراقي- قضايا ومواقف- دار الشؤون الثقافية —بغداد 2002 سلسلة الموسوعة الصغيرة.
4. ثقافة الارهاب والعولمة- دار الشؤون الثقافية-2004.
5. شخصية الدكتاتور في المسرح العالمي - دار الشؤون الثقافية - بغداد 2002- سلسلة الموسوعة الثقافية.

- ناقد مسرحي قام بتدريس النقد المسرحي وتاريخ المسرح في معهد الفنون الجميلة -بغداد لعدة سنوات وساهم في ندوات ومؤتمرات ومهرجانات مسرحية عراقية وعربية عديدة وترأس قسم المسرح في مجلة (فنون) وهيئة تحرير مجلة (السينما والمسرح).
- كتب ونشر العديد من المقالات بأسماء مستعارة عديدة وفي صحف ومجلات عربية وكوردية في اثناء الحكم السابق.
- أعد وقدم عدداً من البرامج الثقافية والمسرحية - إذاعية وتلفزيونيه لعدة سنوات من تلفزيون بغداد ، والتلفزيون الثقافي - بغداد .
- كتب عدة نصوص مسرحية للاطفال واخرى للكبار ونشرها في صحف ومجلات عراقية واردنية وسورية ... وقد عرض قسم منها على خشبة المسرح.

- عمل في الصحافة منذ عام 1964، ونشر دراساته النقدية والقصصية والمسرحية في المجلات الثقافية العربية المتخصصة.
- مراسل معتمد للمجلات العربية:
- الرافد – الاماراتية.
- الجسرة الثقافية – –قطر.
- المجلة الثقافية – الاردن.

عمل خبيراً في وزارة الثقافة ورئيساً لتحرير المجلة (المركزية لوزارة الثقافة (دجلة) مسؤول الملحق الثقافي (ابعاد ثقافية) في جريدة التآخي التي سبق وان بدأ العمل فيها منذ عام 1971.

- ويكتب عموداً صحفياً يومياً في جريدة (الصباح الجديد) منذ عام 2003 الى عام 2013 .
- حالياً متقاعد ومتفرغ للكتابة.
- عمل مديراً لتحرير مجلات وزارة الثقافة منها : آفاق عربية ، الأقلام ، الثقافة الأجنبية ، الطليعة الأدبية ، المأمون ..
- عضو الهيئة الاستشارية في دار الشؤون الثقافية العامة لسنوات عديدة .
- عضو الهيئة الاستشارية في دار الثقافة والنشر الكوردية حالياً .
- تحال له مخطوطات عديدة من قبل وزارة الثقافة والاعلام السابقة وكذلك دائرتي : دار الشؤون الثقافية العامة ودار الثقافة والنشر الكوردية لتقويمها وتقديم الخبرة بشأنها وما إذا كانت صالحة للنشر ام لا .

- متخصص في القصة والرواية والمسرح / نصوصاً ونقداً وبحثاً – المؤلف منها والمترجم كذلك .
- له خبرة في الصحافة والاعلام والشؤون الفكرية .
- **تحت الطبع** :

- أصابع الاوجاع العراقية – قصص .
- دروس في التربية الديمقراطية .

المحتوى